# الجدار

سماح حافظ

# الجدار

سماح حافظ

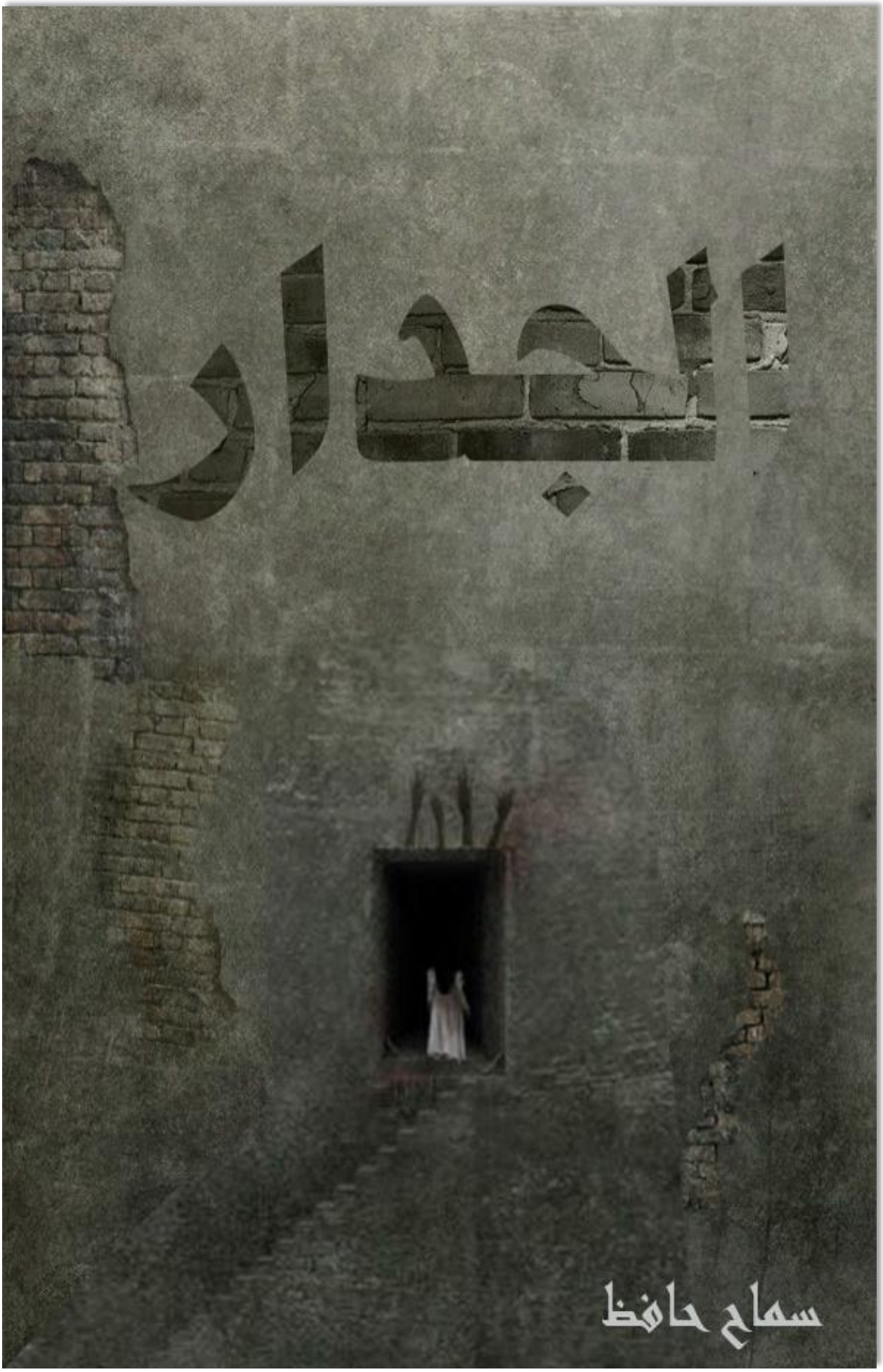
الجدار
سماح حافظ

**إلى من طلب مني يوما أن أتوقف عن تحليل الشخصيات وإصدار الأحكام؛**
**لقد توقفت..**

# الجدار

## رواية

## سماح حافظ

جلس يكتب ..

"وقفت على الجسر تبكي، تستمد من معاناتها القدرة على القفز، لم تعد تشعر بأي رغبة في المواصلة، اكتفت من عالمها وتريد الرحيل.."

شعر أنه بحاجة إلى فنجال قهوة، فترك القلم جانبا وذهب إلى المطبخ.

ظلت أمل واقفة تنتظر أن يكتب نهايتها، هي حقا تريد أن تقفز، فلقد سئمت وجودها في تلك القصة المكررة والحبكة المستهلكة. سمعت صوت أدهم يناديها من بين السطور، مكانهم المفضل للالتقاء بعيدا عن قلم الكاتب، كان يجلس مع باقي أبطال قصتها، أشار لها أدهم لتجلس بجواره :

- اجلسي سيتأخر كعادته، سينسى أنه كان يكتب وربما لن يتذكر إلا في المساء أو الغد.

جلست وهي تقول بضيق:

- لا يعجبني هذا، كيف يريد مني الانتحار ولدي طفل صغير يحتاج رعايتي؟! هل هذا منطقي؟!

- ومنذ متى وهو يمنطقنا أو يجعلنا نتصرف بمنهجية؟

نظرت إليه بطرف عينيها بإعجاب:

- تلتقط الكلمات الفصيحة بمهارة، لا يفعل أحد منا هذا بتلك المهارة.

شعر بالزهو من كلماتها ولكن قبل أن يجيبها هتف سالم بغيظ:

- لستِ في أحداث الرواية الآن لتتملقيه هكذا، ليس إلا شخصية مكتوبة.

نظر إليه أدهم بغضب:

- توقف عن كراهيتك هذه لكل شيء وحقدك علينا، وتذكر أن الرواية متوقفة الآن ولسنا فيها فلا داع لإكمال دورك هنا.

سمعا صوت هادئ صادر من المرأة العجوز التي تداعب القطة النائمة في استرخاء على قدميها:

- لستم سوى مجموعة أطفال، هذا الكاتب يخطئ دائما في اختيار أبطال رواياته .

لم يجرؤ أحد منهم على الرد عليها، فهم يعلمون أنها على حق، حتى أدهم الشخصية الجادة والجذابة يجعله الكاتب يتصرف أحيانا بشكل لا يتناسب مع مواصفات تلك الشخصية، وهذا ما كان يثير حنقه وجنونه.

هتفت أمل فجأة:

- ما رأيكم في أن نعترض على ما يفعله بنا؟ أي نثور ونرفض الخروج من بين السطور؟

ضحكت ميادة هازئة، فرمقتها أمل بنظرة قاسية، ولكنها لم تتوقف عن الضحك وهي تقول:

- يبدو أنه كان محقًا حين جعلك تقفين على هذا الجسر، أنتِ حمقاء بشكل مثير للضحك.

وأكملت ضحكها فأمسكت أمل بالفاصلة الموجودة على السطر الذي يعلوهم وألقتها نحوها، وهذا أثار ضحك الجميع بشكل هيستيري.

فصرخت فيهم:

- تبًا لكم جميعا، لستم سوى مجموعة مجانين.

أشارت نحوها ميادة ساخرة:

- وماذا تكونين أيتها القافزة من على الجسر التاركة صغيرها يبكي وحده في المنزل؟

- أنتم من دفعني لهذا، أنسيتِ أنكِ أخذت مني أدهم؟

- ليس هذا مبررا لتنهي حياتك متخلية عن طفلك .

أشارت لهما العجوز ليهدئا:

- لستما ملزمتان بتبرير أفعالكما، لأنكما لا تكتبان تلك الأحداث السخيفة، فلا تنسيا هذا.

هدئتا بالفعل بعد كلماتها تلك وجلستا في هدوء تفكران كلا على حدة ..

فأردفت العجوز:

- من الواضح أنه لن يكف عن التلاعب بنا وجعلنا نسير في خطوط متعرجة وغير مفهومة، بالفعل كما قالت أمل نحتاج أن نفعل شيئا لنجعله يكتب بشكل أكثر انضباطا، أبطال الروايات الأخرى يسخرون منا، نحن من ضمن الأبطال السفهاء والروايات السخيفة وهذا لا يليق.

نظروا إليها باهتمام وسأل أدهم بضيق:

- أحقا نحن نُصنف هكذا؟! كيف عرفت؟!

- أنا أعرف الكثير يا عزيزي. لكن لا يهم أنني أعرف، المهم الآن ماذا علينا أن نفعل؟ هذه الرواية إن خرجت إلى النور ستكون مثارا للسخرية ونحن كذلك.

قالت ميادة:

- لا، أظن. هذه هي الرواية التاسعة لهذا الكاتب، استمراره في الكتابة واجتراره لنا ولشخصياتنا دليل أن لها قُراء وراغبين.

أكد على كلامها سالم:

- نعم. ميادة على حق، برغم أن أحداث رواياته متشابهة وشخصياتنا تتكرر في كل عمل له إلا أنه مستمر في الكتابة! هذا معناه أنه كاتب ناجح

أخرجت أمل من أنفها صوتا مستنكرا:

- أي نجاح هذا الذي تتحدث عنه؟! لا يقرأنا سوى بعض المراهقين، الذين يبحثون عن قصص الحب المستهلكة والشخصيات ذات النمط الواحد؛ البطل الوسيم والفتاة الجميلة والصديقة الخائنة والفتى الشرير الذي يحوم حول البطلة.

وبعض الدموع والآهات. الأحداث متوقعة والنهاية معروفة، ما المثير في

هذا ليجعله كاتبا ناجحا؟!

سالم هازئا:

- لترينا كيف تكون الروايات. فلتكتبي أنتِ إذًا.

برقت عين العجوز وتجولت بعينيها بينهم:

- يا لها من فكرة! نعم هذا ما علينا أن نفعله.

ردوا عليها بصوت واحد:

- ماذا؟!

- أن نكتب نحن أحداث الرواية. هذا الكاتب ينسى دائما أين توقف، لهذا كلما عاد للكتابة يعيد قراءة ما كتب أليس كذلك؟

أومأوا برؤوسهم علامة الموافقة.

- حسنًا، هذه فرصتنا. نستطيع أن نعيد ترتيب الأحداث وتغييرها، ونصنع لأنفسنا أحداث جديدة منطقية بالنسبة لنا ومتوافقة مع شخصياتنا.

تخللت نظرتهم إليها شبح ابتسامة، ثم تجسدت في ضحك هازئ. فشعرت بالغضب الشديد لدرجة أنها أحكمت قبضتها على عنق القطة النائمة في وداعة فقفزت صارخة وأفلتت من يدها وهرعت لتختبئ بين كلمتين في الأعلى وظلت تنظر إليها في خوف..

- لو ضحكتم مرة أخرى من كلامي ستندمون.

ميادة بابتسامة متهكمة:

- وماذا ستفعلين أيتها العجوز؟ لستِ سوى امرأة مات زوجها في حادث منذ سنين وتعيش في البيت المجاور لبيت أمل وتُطلق بعض المقولات الحكيمة لتبدو الرواية وكأنها عميقة. حتى أنه لا يعطي لكِ دورا حقيقيا مؤثرا. وفي الرواية السابقة نسي وجودك لدرجة أن آخر فصلين من الرواية لم تظهري فيهما.

أعقبت كلامها بصوت ساخر من جانب فمها، ولكن كان هذا أكثر مما تحتمل العجوز فنهضت في محاولة للهجوم عليها، وكانت حركتها حقًا مفاجأة فلم يعتادوا منها على هذا الانفعال!

لم تجد ميادة فرصة للهرب، وفي لحظة كانت أظافر العجوز تُنشب في عنقها وتسيل منها الدماء..

هرع أدهم وسالم لتخليص عنق ميادة من يدها ونجحا في هذا ولكن قطرة من دمائها سالت على السطر التالي للمكان الذي يجلسون فيه. نظروا بخوف إلى نقطة الدم، ثم إلى بعضهم!!

وكان سالم أول من خرج من دهشته وسأل:

- هل هذا دم حقيقي؟! هل نحن حقيقيون؟!

هزت أمل رأسها في خوف وعينيها مسلطة على نقطة الدم وأجابته بصوت مرتجف:

- مستحيل أن نكون كذلك! مستحيل!

كان الصمت هو الرد الأكثر رعبا لهم، لا أحد لديه تفسير لما حدث!

بعد دقائق قال أدهم بهدوء محاولا إيجاد إجابة مقنعة:

- ربما نتخيل! فنحن شخصيات خيالية وكل ما يحدث لنا خيالي، وبالتالي ما نراه أيضا خيالي.

قالت أمل بصوت خافت وكأنه يأتي من بعيد وعينيها على نقطة الدم لا تبرحها:

- ولكن هذا السطر لم يحدث بعد! لم يكتبه الكاتب، فهل نحن الآن نتخيل حدث لم يتخيله الكاتب؟! معنى هذا أننا بالفعل قادرون على التخيل وكتابة أحداث مختلفة عما يريده الكاتب! ما قالته العجوز صحيح، نستطيع أن نكتب نحن هذه الرواية.

سالم: مهلا يا أمل، ليس الأمر بهذه البساطة، إن كنا نستطيع تخيل أحداث وتأليف روايتنا فكيف نستطيع كتابتها لتكن مقروءة للبشر الحقيقيين؟! ستكون كتابتنا أيضا مجرد خيال ولن يراها أحد منهم.

- وما حاجتنا لأن يقرئونا؟ على الأقل سنعيش أحداثا مفهومة لنا بدلا من هذا السخف الذي نعيشه، كما أن..

قاطعها صوت ميادة الغاضب:

ـ ما أحقركم! تتناقشون حول الرواية وتنسون أن هذه العجوز أصابتني في رقبتي؟!

سألها أدهم وعينيه تطل منها نظرة تفكير عميقة:

ـ هل تشعرين بألم الجرح؟

ـ تبا لك، نعم أشعر به، كما أنني أشعر بالإهانة أيضا.

ـ كيف لم ننتبه إلى هذا؟!

سألته أمل باهتمام:

ـ ننتبه إلى ماذا؟!

ـ أننا بالفعل نشعر بالغضب والحزن والخوف والملل والإهانة وكذلك بالتمرد! كنا نحتاج لأن يشعر احدنا بألم جسدي لندرك أننا بالفعل نشعر!

ـ ألم جسدي؟! لا جسد مادي لنا يا أدهم، يبدو أن خيالك يشطح إلى البعيد!

ـ لا ليست شطحات خيال، انظري إلى عنق ميادة، هناك بالفعل ُجرح به وهي تقول أنها تشعر بالألم، ونقطة الدم هذه التي على سطر لم يوجد بعد! كما قلتِ يا أمل، نستطيع أن نكتب الرواية، ولكن السؤال هو: كيف نكتبها؟!

نستطيع التخيل والشعور ونحن بالفعل حقيقيين بالنسبة لأنفسنا، ولكن كيف

نكون حقيقيين بالنسبة لغيرنا؟!

نظر إلى العجوز وكأنه يلقي إليها بسؤاله:

فأجابته بعد أن عادت في هدوء إلى مكانها:

ـ نستطيع أن نجعل الكاتب يكتب ما نريده نحن، وهكذا تُصبح الكتابة حقيقية ومرئية لهؤلاء البشر.

بصوت واحد سألوها:

ـ كيف؟!

ـ كما أخبرتكم هو ينسى، ونحن نعيش داخل عقله، حين يعود ليكتب سطرا

نتحدث نحن بشكل مختلف عما يريده، ونتحرك بأسلوب مختلف، سيربكه هذا قليلا، ثم يعتاد بعد فترة، ويتوقف عقله عن التخيل ويترك القيادة لتخيلاتنا نحن.

سأل أدهم بتعجب:

- هل ممكن أن ينجح هذا؟

- نعم لاتنسَ أنه كاتب ضعيف الخيال محدود القدرات، لا يستطيع حتى

تغيير مواضيع رواياته وكلها تسير على نمط واحد وإن اختلفت أسماء أبطاله أو وظائفهم.

كانت نظرة ميادة إلى العجوز تمتلئ بمزيج عجيب من الكراهية والغضب

والاحتقار والتفكير العميق في كيف تستفيد من هذا!

هتف سالم:

ولكن من الذي سيتحكم في مسار الأحداث؟ أقصد من القائد فينا حتى لا

نتحرك بعشوائية.

أجابه أدهم بهدوء:

- ليس مطلوب منا أن نتحرك وفق مسار محدد، علينا أن نتصرف كأشخاص حقيقيين لنحصل على رواية جيدة.

قالت ميادة وهي تبتسم ابتسامة خبيثة:

- يعجبني هذا.

نظرت نحوها أمل شذرا وكذلك العجوز التي قالت لها محذرة:

- لا تتوقعي أننا نعد لكِ مسرحا لألاعيبك، لن تحدث مواقف ساذجة منذ الآن لتنتصري فيها، ولن ينخدع أدهم بكِ فلا تنسي أنه يعلم حقيقتك بالفعل.

ستتغير الأحداث بشكل كبير منذ الآن.

عاد أدهم بظهره إلى الوراء ورفع رأسه إلى العجوز مندهشا:

- لماذا لم ننتبه إلى هذا أيضا! ماذا سنفعل في الأحداث التي تمت كتابتها

بالفعل؟! أنا الآن طليق أمل وزوج ميادة، وسالم يحوم حول أمل، وأمل تقف على جسر لتنتحر حزنًا على خيانتي وطلاقي لها. ما العمل في كل هذا الهراء؟!

- ليس بيدنا تغييره للأسف إلا لو قرر الكاتب بنفسه هذا. ليس بيدنا سوى

المضي قدما من حيث توقف، ونقلب الأحداث رأسا على عقب ونخلق رواية ليس لها مثيل، تجعل الجميع يردد أسمائنا ويحفظ أقوالنا ونصبح عالقين في خيالهم كأبطال الأساطير.

برقت عين أمل وقالت بسعادة:

- هذا رائع!

رمقتها ميادة باستخفاف:

- لن يكون رائعا لكِ فأنتِ ستقفزين وينتهي أمرك، ولن يكون لكِ وجود في

هذه الرواية، وسآخذ ابنك بصفتي زوجة أبيه. تخيلي أن أقوم بتربية ابنك.

وغمزت لها بعينيها..

استشاطت أمل غضبًا ونهضت فجأة وبدت وكأنها على وشك الهجوم عليها، ولكن فجأة لانت ملامحها وهدأت، وعادت للجلوس وهي تبتسم.

كان تصرفها هذا مثار تعجب الجميع وقلق ميادة! ولكن العجوز ابتسمت في خبث، فهناك تغيير يحدث بالفعل..

**********

توقفت ابنتي عن القراءة عند هذا الحد ورفعت رأسها نحوي وهي تسألني:

- لماذا جعلتِ الشخصيات الخيالية تصبح حقيقية في روايتك هذه؟
- لست أول كاتبة تفعل هذا، ولكنني أردت أن يرى القارئ أن الشخصيات التي بداخل رأس الكاتب حين يكتب الرواية تكون حية بالفعل في رأسه ويتنقل بينها ويتقمص صفاتها ويكتب على لسانها

فتكـاد أن تحتلـه وتـتحكم بـه لـولا خـيط وحيـد يربطـه بـالواقع ويعيـده إليه.

- ألا تخشين من أن تضيع شخصيتك أنتِ وسط كل هذه الشخصيات التي تكتبينها؟ فما قرأته الآن يوحي بأن لهم قوة ما في عقلك.
- أحيانا أشعر بالخوف حين أغرق في الكتابة لفترات طويلة فأجد صعوبة في العودة إلى واقعي، ولكن كما قلت لكِ هذا الخيط الذي يشدني إليه أقوى من أن ينقطع.
- وما هو هذا الخيط؟
- أنتِ.

**********

قلتها ببساطة دون تفكير، بالفعل هي ما يربطني بالحياة والواقع ولولا وجودها لضعت وسط شخصيات رواياتي.

اتذكر حواري هذا معها ولكن لا أتذكر ردها، هذا المشهد يقف هنا وخلفه ضباب كثيف، لهذا قررت أن أكتب ما أتذكره قبل أن أنسى كل شيء.

فأنا الآن أكتب لكم قصتي، اطلقوا عليها اسم مذكرات أو رواية، لا يهم، فقط دعوني أكتب واقرأوا في صمت.

**********

فكرت أن أبدأ قصتي ببعض الاقتباسات القوية لتبدو أكثر عمقًا، لتنظروا إليها بشكل مختلف عما أنظر به أنا. أعلم أنكم تحبون الاقتباسات، فهي تمنحكم هذا الشعور بأنكم وصلتم إلى الحكمة، وبأن تلك الكلمات القليلة تشرح كل ما تريدون قوله أو حتى مالم يخطر على بالكم قوله. المهم أنها تجعلكم هذا

الإنسان الذي ينتشي طربًا ويهز رأسه في وقار الحكماء ويقول بكل ثقة "نعم هو ذاك" .

ولكنني لن أفعل، لست أكتب لإرضائكم، كما لا أتذكر الآن أي كلمات يمكن أن تناسب ما سأرويه، وبهذه المناسبة أريد أن أسألكم: لماذا تعجبكم الاقتباسات الحزينة اليائسة أكثر؟ ما الجميل في اليأس والبؤس وما الذي يجعل هؤلاء العدميون بهذه الجاذبية والحكمة؟! وهل تعرفون إذا ما كانوا بائسون حقًا أم يحاولون فقط جذب انتباهكم وقول ما يعجبكم؟ دوما كنت أسال نفسي ما المثير في جذب انتباه الآخرين وإثارة إعجابهم؟! لماذا نحن بهذه الأهمية لبعضنا البعض ويسعى كل إنسان منا لنيل تلك النظرة المعجبة أو التصفيق المنبهر أو التقدير؟ نعم كلنا بلا استثناء نسعى لهذا، حتى هؤلاء الزاهدون الملتصقون بالجدار ويشاهدون العالم من زاوية غير مرئية للآخرين. لم يكونوا دائما هكذا، فهم إما كانوا راكضون خلف الاهتمام حد التعب ونالهم اليأس فاستسلموا.. وإما سئموا نظراتكم واهتمامكم وتساويتم عندهم باللا شيء، تشبّعوا بإعجابكم وتصفيقكم حد الملل، فافرغوا جعبتهم من الجميع وزحفوا لهذا الجدار الآمن الخالي من كل رغبة الزاهد في كل ميل .

أنا من هذا الصِنف الثاني لهذا وبكل أريحية أقول لكم أنني من أولئك الزاحفين نحو الجدار. وسأخبركم كيف زحفت إليه. وقبل أن أبدأ لنترك هذا الفاصل الصامت لأولئك الراحلون، وأقصد بهم من يشعرون الآن بالملل من ثرثرتي واضطراب أفكاري، ويفكرون بغلق صفحاتي والانتقال إلى غيرها أو شرعوا بالفعل في غلقها. فلا أحب أن أتحدث إلى هؤلاء المتسرعين الملولين.

**********

حسنًا، أظن تبقى معي الآن هؤلاء المتمهلون، الذين يعدون أنفسهم للقراءة بطقوسهم الخاصة؛ هدوء ناعم، اضاءة خافتة، مشروبهم المفضل يقبع بجوارهم في وقار وانتظار لهذه الرشفة الأولى مع أول سطر، وربما في الخلفية تنساب موسيقى هادئة قانعة بذلك القدر البسيط من اللاوعي الذي تتحرك فيه، لا تحاول لفت الأنظار أو الاستحواذ على الاهتمام، فهي تعلم أن الراقد بين أيديهم الآن هو أمير تلك الطقوس وهدفها ..

إلى هؤلاء سأروي قصتي..

# الفصل الأول

لن أبدأ الاحداث منذ طفولتي ونشأتي وتلك الفترة الزمنية الطويلة، لست دولة أحكي تاريخها للعالم. لهذا سأبدأ من تلك الليلة التي كنت أجلس فيها على فراشي أمام جهاز اللاب توب أشاهد أحد الأفلام القديمة.

في ذلك اليوم والذي كان أحد ليالي الشتاء الباردة، حيث يكون الفراش هو الجنة والغطاء الناعم ثمارها والشاشة بما تبثه قصورها. دخلت ابنتي تلك اللحظة والبطل يشرع في القفز وهو فوق دراجته البخارية ويمتطيها كجواد بري لم يتم ترويضه بعد، كانت أول كلماتها لي غير مفهومة، لأن كل تركيزي كان مع راعي الدراجات هذا _ دراج بوي، على غرار كاوبوي. أعادت ما قالته بنفاد صبر، هذا كان واضحًا من نبرة صوتها فالتفت إليها لأطلب منها أن تعيده للمرة الثالثة، نعم كانت نظرتها لي حين طلبت منها تكرار ما قالته كما تتخيلونها.

- هل سمعتي عن المذيعة التي انتحرت على الهواء أمام المشاهدين؟

هذا السؤال جذب انتباهي بشدة، وكنت أريد تفاصيل أكثر:

- لا لم أسمع، ماذا حدث ومتى ومن هي؟!
- مذيعة أمريكية، كانت تقدم أحد البرامج الإخبارية عن الحوادث والجرائم. كانت تعشق العمل الإعلامي، وسعت لتصبح مذيعة لأحد تلك البرامج الخفيفة الصباحية، لكن انتهى بها الحال لهذا البرنامج الحزين، الذي يتناول الأحداث المأساوية وجرائم القتل والانتحار والخطف وغيرها.
- ولماذا انتحرت؟! ولماذا على الهواء؟!
- في تلك الحلقة من البرنامج كانت ستتحدث عن حادث انتحار لأحد الأشخاص، ولكن الصورة الموثقة لهذا الحادث لم تكن جاهزة للعرض، فتداركت الموقف بكل بساطة وقالت بكل هدوء للمشاهدين "عودناكم على توثيق كل جريمة أو حادث نتحدث عنه، ونظرًا لوجود عطل الآن يمنع إظهار صورة الشخص المنتحر الذي سأحدثكم عنه اليوم، فسأقدم لكم عوضًا عن هذا مشهد انتحار حقيقي"

وفي الثانية التالية أخرجت مسدس صغير وألصقته خلف أذنها وأطلقت النار ..

نظرت إلى ابنتي مشدوهة ..

- هل كان هذا مشهد تمثيلي؟!
- لا بل حقيقي، كان المشهد سريع جدًا، ومفاجئ للجميع، فلم يستطع أحد إيقافها وأعلنوا وفاتها بالفعل.

ابنتي معتادة أن تروي لي الأخبار الغريبة التي تقابلها في الشبكة العنكبوتية وعالمها الأزرق، سنوات عمرها الستة عشر تحفز داخلها خلايا الفضول نحو غرائبيات العالم الحقيقي وشخوصه المخيفين. ولأنني أشعر ببعض القلق من اهتماماتها تلك وأراءها السلبية في حق هذا الكوكب وسكانه، فإنني أولي اهتمام خاص بكل خبر أو قصة ترويها لي. دار بيننا حوار قصير حول المنتحرين ودوافعهم والاكتئاب وأسبابه. وكانت هي متعاطفة مع المكتئبين بشكل عام وتلتمس لهم العذر وأنا مهاجمة لهم ولا ألتمس لهم عذرًا وأُرجع اقدامهم على الانتحار إلى ضعفهم واستسلامهم وفقد ثقتهم بأنفسهم وقدرتهم على المقاومة. لم يعجب كلامي ابنتي فأنهت الحوار بهدوء وخرجت. بعد خروجها أغلقت الفيلم دون إكماله وفتحت المتصفح بحثًا عن هذه المذيعة وقصتها. ووجدتها بالفعل، اسمها كريستين شوبوك، مذيعة أخبار أمريكية. ولكن حادثة انتحارها قديمة! وقعت في السبعينيات! شعرت ببعض الراحة لأن هذا الحدث قديم، فهي من فترة زمنية لا تخصني الآن وبالتالي شعور الرثاء نحوها لا مجال له. لكن ما استحوذ على انتباهي حقًا هو نظرة عينيها قبل الانتحار! نظرة عادية جدًا، وكأنها تعلن خبر انتحار شخص آخر! أم تراها في تلك اللحظة كانت شخصًا آخر بالفعل؟! ودار في ذهني ما قلته لابنتي عن المنتحرين، وشعرت حينها بقسوة حكمي عليهم، وبأنني لا حق لي في إطلاق أي أحكام على أي شخص. فكيف لامرأة مثلي متدثرة بغطائها الدافئ في فراشها الوثير أن تحكم على شخص متدثر بحزنه راقد في كهف آلامه! ربما هذا ما قالته ابنتي لنفسها لهذا أنهت حوارنا سريعًا. وقررت أن أصل إلى إجابات بخصوص هذا الموضوع، لأعيد فتح ذاك الحوار مع نفسي أولا ثم مع ابنتي .

امرأة أربعينية مثلي لديها ابنة في سن المراهقة، عليها أن تكون أكثر نضجا ومعرفة، خاصة أنني أعمل كاتبة، وأحظى بشهرة كبيرة بوصفي كاتبة، ينتظر

القراء رواياتي ومقالاتي، يقتبسون من كتاباتي ويلقون عليَ بتلك الهالة المزيفة من الحكمة حتى صدقت أنني كذلك بالفعل، فأصبحت أرى كل ما يدور حولي كجلسة محاكمة أنا قاضي منصتها. هذه الفوقية والإحساس العالي بالذات جعلاني تلك المرأة ناعمة الصوت قاسية اللفظ. هل كان قرار بحثي هذا من أجل ابنتي أم من أجلي؟! لا أستطيع الإجابة الآن، ولكن ربما نجد الإجابة أنا وأنتم عندما أنتهي. أعرف طبيب نفسي كبير، قابلته في احدى تلك الأمسيات الثقافية. فكرت أنه يستطيع مساعدتي بأن يقابلني بأحد المرضى. هاتفته تليفونيا وأخبرته برغبتي وأنني أشرع في كتابة رواية نفسية وأجمع لها معلومات وأحتاج إلى التحدث مباشرة مع مريضة اكتئاب. وحددت مريضة وليس مريض ليكن التواصل أسهل وليس خوفًا من الرجال أو كرها لهم، لأنكم لو تعرفون أنني منفصلة عن زوجي منذ سنوات لظننتم هذا. ولكن لا، طلاقي لم يسبب لي أي عقدة نحوهم، في الحقيقة سبب طلاقي هو حالة اللا مبالاة التي كنت أتعامل بها مع زوجي، حتى عندما حاول إثارة غيرتي بأن يجعلني أكتشف خيانته لي لم أهتم. نعم لم أهتم به هو ولكن كل اهتمامي كان عني أنا، وكيف يجرؤ أن يخونني ويفضل امرأة أخرى عليَ! من هو ليفعل بي هذا ويضعني في تلك المقارنة مع امرأة ساقطة!! لهذا قررت الانفصال. أخبرت ابنتي بقراري بهدوء، لم أذكر لها السبب والعجيب أنها لم تسأل ولم تعلق! وأنا شعرت بالراحة لموقفها هذا الذي جنبني الكثير من الشرح واهدار الوقت. مرت ثلاث سنوات على طلاقي الآن ولا أشعر بشيء حيال تلك السنوات ولا أفكر فيما قبلها، فغياب زوجي عن مشهد حياتي لم يسبب لها أي إرباك أو نقص. فأنا لم أكن أشعر بوجوده من الأساس، كنا غريبان يلتقيان لقاءات عابرة والآن رحل كلا منهما في طريق إلى الأبد .

- ما رأيك بالقدوم إلى المشفى لتري بنفسك المرضى وتتحدثين مع من تشائين منهم؟
- أفضل أن أقابل احدى الزائرات في عيادتك الخاصة .
- لا أستطيع هذا، فهن لا يحبذن أن يعرف أحد بمشاكلهن النفسية وسيغضبن مني إن رتبت هذا اللقاء. لا تنسي أننا هنا ليس لدينا ثقافة استيعاب المرض النفسي أو ذاك الوعي به. لهذا قليلون من يلجؤون للعلاج النفسي برغبتهم، حتى عائلاتهم يحاولون أن يتم هذا في السر خوفًا من الفضيحة.
- الفضيحة؟!
- نعم، المرض النفسي في هذا الجانب من العالم فضيحة.

- حسنا، سآتي إلى المشفى. هل يناسبك غدًا بعد الظهر؟
- نعم، سأنتظرك.

كان هذا حواري كما استنتجتم مع ذلك الطبيب النفسي، واعذروني لعدم ذكر اسمه فهو لن يفيد قصتي في شيء، الأحداث التالية هي الأهم..

كانت زيارتي غير مجدية على الإطلاق كما توقعت، فلا واحدة ممن حاولت الحديث معهن استجابت أو حتى أجابت على سؤال واحد من أسئلتي، كن يرمقنني بحذر وشك بل ولمحت نظرة خوف من إحداهن.

**"هل أنا مخيفة؟"!**

دفعني هذا السؤال إلى المرآة لأرى ملامح وجهي، أراها كل صباح ولكنني أبحث اليوم عن تلك الملامح غير المريحة والمخيفة التي نفرتهن مني. نظرت إليه في المرآه فرأيته كما أعرفه! وجه امرأة عادية به مسحة جمال وذات نظرات عميقة، لم تغزو التجاعيد بعد وجهي، بعضها فقط يزحف على استحياء بين حاجبي، وبعض الارهاق يسكن تحت جفني. لكن لم أر أي شيء مخيف بي أو يدعو لعدم الثقة! ربما نظرتي إليهن كان بها هذا الشيء؟ لا أعلم، المهم أنني خرجت من تلك الزيارة خالية الوفاض وقدت سيارتي ورأسي محملة بالكثير من الأفكار المتشابكة لدرجة الضباب .

حين دخلت شقتي استقبلتني ابنتي باهتمام:

- كيف كانت زيارتك؟

تنهدت وأنا ألقي بالمفاتيح على المنضدة وبجسدي على الأريكة في نفس الوقت:

- لا شيء، المحصلة صفر.
- لماذا؟!
- شعرن بالخوف مني فلم يتكلمن.
- هذا منطقي.

نظرت إليها بدهشة:

- ما المنطق في هذا؟!

جلست بجواري وهي تقول ببساطة:

- لأنك لستِ منهن، غريبة تأتي لتراقبهن وتدرسهن وكأنهن كائنات عجيبة.
- لا ليس هذا صحيح، لم أحاول الكلام إلا مع مريضات الاكتئاب ومحاولات الانتحار فقط. وهن حسب علمي كاملات العقل، يعانين فقط من الحزن الشديد ويتسورن آلامه، وكنت أحاول عبور تلك الأسوار .
- لن يفتحن لكِ قلوبهن وأنتِ غريبة عنهن، لو أردتِ حقًا أن يسمحن لكِ بالاقتراب فكوني واحدة منهن. أعرف مشفى راقية تحيط ساكنيها بالسرية التامة. لو قمتِ بمغامرة صحفية ودخلتيها كمريضة ستكن فرصتك في الفهم أكبر .

فوجئت بما قالته! هل تريدني أن أكون نزيلة مشفى نفسي وأقيم مع مريضات قد يكون بعضهن خطرات! هل اقتراحها هذا نابع من ذكائها ومحاولتها مساعدتي بتقديم أفضل الطرق للبحث أم شيء آخر؟! بحثت عن هذا الشيء الآخر في نظرتها لي، ولكن سرعان ما نفضت الفكرة المريبة وبدأت في التفكير بموضوعية في اقتراحها. وبعد دقائق من محاولتها إقناعي بفكرتها وجدت أنني موافقة، كنت أحتاج فقط إلى معلومات عن تلك المشفى وقدمتها لي ابنتي بكل بساطة، فمن الواضح أنها تعلم عنها الكثير وهذا ما أثار فضولي:

- كيف عرفتي هذه المشفى ولماذا؟!
- اعلاناتها على شبكة الانترنت، ومديرها يظهر في البرامج الطبية.

"هل طبيعي أن تهتم ابنتي بهذا؟! هل كان عليَ أن أقلق حينها وأسألها عن مغزى هذا الاهتمام؟ وللمرة الثانية نفضت تلك الأفكار من رأسي ونهضت وأنا أقول لها أنني سأحاول التواصل مع تلك المشفى، ولكني أحتاج لبعض الراحة أولا.

تركتها واتجهت إلى غرفتي، بدلت ملابسي ولم أستطع النوم أو الاسترخاء، فجلست على الفراش وفتحت جهاز اللاب توب وبحثت عن اسم المشفى.

ووجدت إعلانها: "كلنا نتعرض في فترة ما من حياتنا لضغوط نفسية، احساس بالضيق والفراغ أو الحزن الشديد، ليس عيبًا أن تصاب باكتئاب أو أي مرض نفسي، العيب هو أن تستسلم، أن تعيش وسط من لا يفهمونك ولا يقدمون لك المساعدة، نحن سنقدم لك كل ما تريده في تلك المرحلة العصيبة من حياتك، مكان هادئ، أشخاص متفهمون، سرية تامة، أدوية فعالة وطرق علمية حديثة.

لا نقول عنه أنه مشفى نفسي، هو منتجع للراحة النفسية. في انتظارك"..

يبدو الإعلان مثيرا، ومشجعا، بالإضافة لتلك الصور المصاحبة للإعلان وتظهر فيها تفاصيل المشفى الأنيقة والحديقة الملحقة بها وحمام السباحة ووسائل الترفيه والغرف الجميلة، تبدو منتجعا فعلا وليس مشفى !

كان عليَ التفكير في كيفية الالتحاق بها، هل سألتحق بها دون أن يعلم أحد بطبيعة مهمتي فيها، أم أتواصل مع مديرها وأشرح له كل شيء؟ ظللت أفكر في هذه النقطة وأختبر في رأسي كل الإجابات بنتائجها المحتملة. ثم حسمت أمري بألا أخبر أحد، لتكون المغامرة كاملة والتجربة ناجحة والنتائج حقيقية .

في اليوم التالي قمت بالاتصال بالمشفى لأحدد ميعاد للقاء. حسب الإعلان يتم الاتصال لتحديد موعد ثم الاتفاق على التفاصيل. فهذه المشفى يذهب إليها المريض بنفسه وبإرادته ويخرج منها متى شاء، وهذا هو ما شجعني وطمئنني لخوض تلك المغامرة. بعد أن أجريت الاتصال وحددت الموعد _والذي كان في نفس اليوم عصرًا_ سألت نفسي: لِمَ تخوضين هذه المغامرة؟! هل حقًا لجمع معلومات لرواية جديدة، أم لأن ابنتك اقترحت عليكِ هذا وبداخلك احساس ما يخبرك أن وراء هذا الاقتراح سر؟ أم لأنك تشعرين بأنكِ بحاجة لشيء ما مختلف؛ غير مألوف ولا معتاد يشعرك بالحياة؟ فهذه الحياة الناجحة رتيبة، لا شيء بها سوى كلمات الاعجاب من رسائل القراء واللقاءات الصحفية والتليفزيونية، وأموال تتدفق ويد تكتب وعينان معلقتان بشاشة إلكترونية معظم الوقت، وجدران صماء.

ليس لي صديقات، لا أعرف لماذا؟! ولا صلة قوية لي بأي قريب، كلهم بالنسبة لي غرباء، أعرف أسمائهم فقط ونلتقي في المناسبات ثم لا شيء!حتى أختي الوحيدة لا أراها إلا على فترات طويلة.

ابنتي هي الجزء الوحيد الحي مني، ولكني ألمح بُعدًا ما بيننا، أعزو هذا لأنها بدأت مرحلة المراهقة المشوشة لإدراكها. لهذا اتركها تتجاوزها بمفردها لتكن مثلي؛ قوية وناجحة. الاعتماد على الآخرين مضيعة لكل طموح ومقيد للحركة .

حسنًا عليَ أن استعد الآن لخطوتي الجريئة القادمة، سأعتبرها تأكيدًا آخر على تميزي واختلافي. فلا أظن امرأة أو كاتبة في عمري قد تخطو خطوة مثل هذه.

خرجت من غرفتي واتجهت إلى الحمام وفي طريقي لمحت غرفة ابنتي بابها مواربا، فطرقت الباب طرقة خفيفة ودخلت..

كانت نائمة! وقفت دقيقة مترددة هل أوقظها لنتناول الإفطار معًا! لم نفعل هذا منذ فترة طويلة، فترة الصيف تبعدنا كثيرًا، فهي تستيقظ متأخرة واستيقظ أنا مبكرًا، ثم أخرج لقضاء بعض المشاوير أو أغلق الباب على نفسي لأكتب، ثم قد نجتمع على الغداء أو لا نجتمع، حسب ظروفها وظروفي. وليلا تجلس كل منا في غرفتها أمام شاشتها وعالمها الخاص. هل نبدو كغريبين يعيشان تحت سقف واحد؟! لا ليس تماما، من حين لآخر تأتيني هي لتحدثني عن شيء قرأته أو أثار دهشتها.

لاحظت الآن شيئا غريبا! لم تعد تتحدث معي عن أي شيء يخصها! منذ متى توقفت عن هذا؟! لا أتذكر! لماذا لم يلفت هذا انتباهي سوى الآن؟! ولماذا لم أسألها أنا عن حياتها وصديقاتها ودراستها؟! ربما لأن كل شيء يبدو طبيعيا!

هل حقًا كل شيء يبدو طبيعيا؟!

وأنا أدور في متاهة أفكاري، تململت ابنتي في فراشها، فانسحبت بهدوء من غرفتها واتجهت إلى الحمام.

بعد خروجي منه قمت بطقوسي المعتادة، اخرجت قطعة توست ومكعب زبدة وملعقة عسل، واعددت فنجالا من الشاي بالحليب. أفكر جديًا في استئجار خادمة لليوم بكامله فضلا عن تلك المرأة التي تأتي كل ثلاثة أيام لتنظيف البيت. عدم ثقتي في الخادمات هي ما تجعلني مترددة في اتخاذ تلك الخطوة، كيف نثق بالغرباء !

انتهيت من افطاري وحملت هاتفي الذي اسميه رفيقي، لا أحد يرافقني طوال الوقت غيره، رفيق هادئ ليس متطلبًا ولا يرهقني بثرثرته أو مناسباته. لا يحتاج سوى وضعه على الشاحن مرة في اليوم وشحن رصيد وجراب أنيق. قمت بالتصفح الروتيني وقراءة العناوين ومتابعة الأخبار. ثم اغلقته واتجهت إلى غرفتي لأرتدي ثيابي وأخرج. كان لديَ موعدا مع أحد الناشرين، ثم سأعود للبيت أتناول الغداء ثم اذهب بعد هذا لموعدي مع مغامرتي المرتقبة .

كان لقاء العمل مثمرًا، أخبرني الناشر بأن روايتي الأخيرة سيتم ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، وأنه اتفق مع احدى دور التوزيع هناك. هذا الخبر أسعدني كثيرًا، وحمسني لروايتي الجديدة. وفي طريق عودتي اشتريت الغداء، وكان بيتزا بالجمبري كما تحبها ابنتي. وصلت إلى البيت وناديت عليها فظهرت على باب غرفتها، اشرت لها نحو البيتزا وأنا أقول بلهجة مرحة:

- هلمي إلى الطعام، بيتزا جمبري كما يعشقها قلبك.

ابتسمت وهي تقترب وتمد يدها لتأخذها وتقول:

- فلتبدلي ثيابك بسرعة قبل أن ألتهمها وحدي.

تعلم هي عادتي، لا أستطيع أن آكل إلا في ملابس البيت الفضفاضة. لأشعر بالراحة ولأستمتع بالطعام. أراه جزء من بهجة الحياة ويستحق الاستعداد له كما يجب..

غسلت يدي وبدلت ملابسي سريعا، وجلست مع ابنتي لنأكل، وكانت تحمل هاتفها في يدها كالعادة. فقلت لها بهدوء:

- لا هاتف الآن، لنستمتع بالطعام، كما أنني أريد أن أتحدث معكِ في موضوع.

وضعت الهاتف على المائدة ومدت يدها لتأخذ قطعة بيتزا وهي تسألني دون أن تنظر إلي:

- ما الأمر؟ !
- سأذهب بعد الغداء لمقابلة مدير المشفى النفسي.
- هذا جيد.
- توجد مشكلة.
- وما هي؟!
- إذا قررت فعلا الإقامة في هذه المشفى عدة أيام، ماذا ستفعلين أنتِ؟

هزت كتفيها بلا مبالاة:

- لا شيء.
- لا أستطيع أن أتركك هنا وحدك .
- وماذا تقترحين؟
- أن تذهبي للإقامة مع خالتكِ حتى أعود.
- لا، سأذهب إلى أبي أفضل. لا أرتاح في بيت خالتي، أولادها ضجيجهم لا يتوقف.

لم يعجبني أن تذهب لبيت والدها، فتناولت قطعة بيتزا وقضمتها ثم قلت بهدوء:

- لا داعٍ، لن أذهب. هذه فكرة مجنونة من الأساس. لا أعرف كيف كنت سأنفذها.

فوجئت بها تقول سريعا:

- بل هي فكرة رائعة، تخيلي أن تكتبي رواية من قلب الحدث! لا أظن كاتب فعلها قبلك. الجميع يكتب عن المرض النفسي من الخيال، أما أنتِ ستكتبين عنه من الواقع وعن معايشة حقيقية.

ثم أردفت بحماس وعيناها تلمع:

- ستكون رواية مذهلة.

انتقلت إليَ حماسة ابنتي، وشعرت بطاقة نشاط تسري في ورغبة في الكتابة تعتريني.

- حسنًا، ستذهبين إلى والدك، لن أغيب كثيرًا، أسبوع واحد فقط وسأعود بإذن الله.

انهيت غدائي وشربت قهوتي، واسترخيت لدقائق، ثم ارتديت ملابس الخروج ولوحت لابنتي مودعه وأرسلت لها قبلة في الهواء قبل أن أغلق الباب خلفي.

**********

حين ترجلت من سيارتي ووقفت أمام بوابة المشفى شعرت فعلا بأنها ليست كذلك. كان أمامي فيلا أنيقة ذات سور جميل، ليس مرتفعا ولا تحيط به قضبان. ورأيت البوابة مفتوحة!

عبرت البوابة وأنا أتأمل تفاصيل الفيلا وحديقتها المبهرة، لا تشعر أمام هذا الجمال إلا بالرغبة في الحياة فيه. شقتي بالتأكيد جميلة وأنيقة ولكنها ليست بهذه الروعة أبدًا.

لمحنى أحدهم واتجه ناحيتي واستنتجت أنه الحارس، قد أتى من حيث لا أعرف!

- من حضرتك؟
- أنا فريدة الأدهم، لديَ موعد مع دكتور قاسم.

رفع جهاز اللاسلكي الذي يحمله إلى فمه ونطق باسمي، وسمعت صوتًا نسائيا يقول له "دعها تدخل"

اشار لي بالدخول وهو يقول " تفضلي ."

أول ما لمحت بالداخل قاعة فسيحة يتوسطها سلم، وامرأة تجلس على مكتب جانبي، اتجهت إليها وأنا أذكر اسمي، فابتسمت بود وهي تشير نحو السلم وتقول:

- اصعدي إلى الدور الأول، الغرفة الثانية على اليمين. الدكتور في انتظارك.

أومأت إليها برأسي وصعدت كما أخبرتني. كان أمامي رواق طويل ملئ بالغرف، ولكني طرقت باب الغرفة الثانية. وسمعت صوتًا عميقًا يسمح لي بالدخول.

فتحت الباب ورأيت رجلا وقورا، حليق اللحية والشارب في الخمسين من عمره تقريبا يبتسم لي مرحبا:

- أهلا أستاذة فريدة، تفضلي.

تفضلت وجلست أمامه وقد رسمت ابتسامة بسيطة على وجهي.

بدأ هو الكلام:

- المشفى أنار بكِ سيدتي .
- شكرًا لك. في الحقيقة لن أقيم هنا كثيرا، هو أسبوع واحد فقط.

هز رأسه متفهما:

- لا مشكلة أبدا، بالتأكيد لاحظتِ حين قدومك أن البوابة مفتوحة طوال النهار لمن يريد أن يرحل. ليس سجنًا كما ترين. بل مكانًا للاستجمام والراحة كأي منتجع آخر، الاضافة الوحيدة أنه تحت إشراف طبي.
- نعم أعرف هذا، ولهذا جئت.
- رائع. ولكن نحتاج لمليء بعض الاستمارات ومعرفة بعض التفاصيل.
- تحت أمرك، اسأل ما شئت.
- اسمك بالكامل وصورة بطاقة هويتك، بالإضافة لجلسة بسيطة كبداية لتحديد خطة العلاج.
- عفوا، ولكنني لا أحتاج أي علاج، فقط بعض الراحة والهدوء بعيدًا عن كل من أعرفه. لهذا أرجو ألا يعرف أحد بوجودي هنا، ومن خلال إعلانكم فهمت أنكم تحافظون على تلك السرية.
- نعم بالتأكيد. ولكن كما أخبرتك فهذا منتجع تحت إشراف طبي. يجب إعداد ملف لكل ضيف، به كل شيء عنه .
- ألا يمكن عمل استثناء لي؟

- ولماذا؟
- لأني بالفعل لست مريضة بأي شكل، أنا فقط أريد بعض الهدوء والعزلة.

تنحنح في حرج وهو يقول:

- عفوًا، ولكن لو رغبتِ في بعض العزلة فقط فلماذا لم تتجهي إلى أي فندق منعزل أو استأجرتِ شقة في مكان بعيد؟!

ترددت في الإجابة.. خشيت أن أخبره بالسبب الحقيقي، أريدها تجربة حقيقية بدون أي تدخلات.

- حسنًا، إذا كنت تصر على تلك الجلسة فلا مانع لدي .َ

ابتسم في راحة وهو يضغط زر فوق مكتبه، فدخلت امرأة في الثلاثين من العمر تقريبا، ترتدي المعطف الأبيض الخاص بالأطباء. فأشار لها الطبيب نحوي قائلا:

- ضيفتنا الجديدة أستاذة فريدة. أرجو أن تهتمي بها، ستكون تحت إشرافك.

ابتسمت الطبيبة ومدت يدها وصافحتني بترحاب، ثم طلبت مني أن أتبعها، فتبعتها في صمت.

سارت وأنا ورائها أتأمل كل ما يمر بي، لوحات جميلة على الجدران، بعض النساء يسرن برفقة ممرضات وبعضهن وحدهن. لا أعرف لماذا شعرت برهبة في تلك اللحظة! بدت لي أنها مشفى حقيقية، ولكن ما المخيف في هذا؟! أنا أعلم بالفعل أنها مشفى ولكن بشكل مختلف. وصلت دليلتي إلى باب غرفة وأشارت نحوه بابتسامة رائعة:

- هذه ستكون غرفتك، ستعجبك كثيرا من الداخل.
- فتحت الباب وتقدمتني، كانت بالفعل غرفة جميلة، ولكن نافذتها مغلقة بقضبان من الحديد! عبرت عن دهشتي من وجود هذه القضبان فسارعت الطبيبة بالشرح بأنها ضرورة لحماية المريضات. فهمت أنها تحميهن من القاء أنفسهن منها. وبرغم ضيقي من هذا المشهد الصغير الذي يتوسط الغرفة وجعلها كالسجن إلا أنني أبديت تفهمي ولم أعترض، فسألتني الطبيبة:
- أين حقيبتك؟
- لم احضرها اليوم، أردت أن أرى المكان على الطبيعة قبل الإقامة الفعلية. سأعود غدًا بإذن الله بعد ترتيب أموري .

- كما تشائين، ولكن عليكِ بالمرور بالدكتور قاسم في طريق خروجك لإبلاغه بهذا .
- حسنا سأفعل.

اتجهت الطبيبة للخروج فسارعت بسؤالها:

- ما اسمك؟

ابتسمت قائلة:

- نائلة

في طريق عودتي مررت بالفعل بغرفة الدكتور قاسم والذي فوجئ بعودتي وهذا بدى من ملامحه:

- اعتذر للقدوم هكذا ولكن أردت اخبارك أنني سأذهب الآن وأعود في الغد ان شاء الله.

اخرج من درج مكتبه عدة أوراق وقال لي احضريها معكِ غدًا بعد ملأ بياناتها. أومأت إليه برأسي وابتسمت بلطف وأخذت الأوراق وخرجت..

في البيت كانت ابنتي تجلس أمام التلفاز، لم تلتفت لي فجلست بجوارها وأنا أسألها:

- ماذا تشاهدين؟
- لا شيء محدد. كيف كان يومك؟
- على ما يرام، اتفقت على كل شيء وسأذهب غدًا .

حينها نظرت نحوي ولمحت بريقًا في عينيها وهي تقول:

- هذا جيد، أتمنى لكِ مغامرة سعيدة
- متى ستذهبين إلى والدك؟
- غدًا بعد رحيلك.
- لا، سأوصلك أنا إلى هناك في طريقي.
- كما تشائين.

**********

اعدت حقيبة متوسطة الحجم، بها ما أحتاجه في هذا الأسبوع، ثم استلقيت على فراشي ونمت..

في الصباح قدت سيارتي حتى بيت طليقي، لم نتكلم أنا وابنتي، كان بيننا شيء يريد أن يُقال ولكنه لم يقال. أوقفت السيارة فهبطت منها ولوحت لي بيدها مودعة! لم نتبادل أي كلمة لا أعرف لماذا!

وانطلقت مرة أخرى بالسيارة ورأسي يدور ويدور بالأفكار القلقة.

ووصلت إلى المشفى وقادتني احدى العاملات إلى غرفتي بعد أن سلمتهم الأوراق التي طلب مني الطبيب بالأمس ملأ بيناتها والتوقيع عليها.

دخلت الغرفة وجلست في هدوء على حافة الفراش وأنا أعيد تأمل تفاصيل ما حدث في الأيام السابقة.

وبعد دقائق سمعت طرقات على الباب ثم ظهرت فتاة! كانت بيضاء البشرة، قصيرة القامة، غير مرتبة الشعر، ترتدي قميص رمادي اللون وحول عنقها سلسلة في منتصفها قلب أزرق. وقفت الفتاة تتأملني دقيقتين ثم فتحت فمها لتتكلم ولكنها أغلقته ثانية وانصرفت!

قمت وأغلقت الباب بالمزلاج، لا أريد متطفلين آخرين.

ثم افرغت الحقيبة ورتبت ثيابي في خزانة الملابس وباقي أشيائي في أماكنها، وارتديت شيئا مريحا ثم استلقيت على الفراش.. عيناي تتأمل سقف الغرفة وعقلي خارجها. كنت أفكر في ابنتي وكيف ستكون اقامتها مع والدها. هو يحبها بالتأكيد ويعاملها بشكل جيد، ولكن كيف ستتقبل زوجته وجودها؟ !

للمرة الثانية أسمع طرقًا على الباب يقطع أفكاري ويشوشها، قمت لأفتح وأنا أشعر بالضيق، لم أعتاد على كثرة الزوار.

هذه المرة كانت الزائرة هي نائلة، الطبيبة المسؤولة عني. ابتسمت في وجهي وهي تقول:

- هل تسمحين ببعض الوقت؟

اشرت لها لتدخل، وبعد أن جلست على المقعد الوحيد الذي بجوار الفراش قالت:

- عليكِ أن تتعرفي بجيرانك، كلنا هنا أسرة واحدة. سأرتب لكِ لقاءً جماعيا مساءً لتقابليهن جميعا .

أومأت لها برأسي علامة الموافقة، فانفرجت شفتاها عن ابتسامة لطيفة وانصرفت.

في المساء عادت لتصحبني إلى قاعة فسيحة تبدو كحجرة معيشة؛ مقاعد مريحة طاولات عليها أكواب مشروبات بألوان مختلفة، شاشة تلفاز كبيرة ولكنها كانت مغلقة. تطلع الجميع نحوي بفضول حين ارتفع صوت نائلة وهي تطلب انتباههم وتعرفهم بي بذكر اسمي وأنني العضوة الجديدة في أسرتهم. لكن لم يتحرك أحد منهم لمصافحتي أو الترحيب بي، اكتفوا بنظرة فضولية أخجلتني. كن حوالي عشرين امرأة، أعمارهن مختلفة؛ ما بين السابعة عشرة والستين عاما. تبدو على بعضهن حركات عصبية من هز الأرجل لقضم الأظافر أو النظرات القلقة. وكانت بعض الممرضات يقفن على جوانب الغرفة بملامح جامدة وكأنهن حراس لها .

أشارت لي نائلة لأجلس على أحد المقاعد وجلست بجواري. ثم بدأت في التحدث إلى الجميع:

- كما تعودنا دائمًا في اجتماعاتنا الأسرية تلك أن نتحدث بكل حرية عن كل ما يدور في أذهاننا، ولأن صديقتنا فريدة تحضر هذا الاجتماع لأول مرة فعليكن أن ترينها كيف نتحدث معًا وكيف يحكي كل منا ما يشعر به بدون خوف أو خجل. من يبدأ عزيزاتي؟

كان السؤال موجه للجميع ولكن بدى وكأنه موجه للا أحد! فأشارت هي لإحداهن وقالت:

- فلتبدأي أنتِ عزيزتي سلمى.

سلمى امرأة ثلاثينية عادية الملامح ولكن جذابة؛ تجلس في كبرياء غريب! تضع قدم على أخرى وتنصب ظهرها على المقعد وترتكز رقبتها على أكتافها في وضع عمودي ونظراتها للأمام. لم تلتفت إلى الطبيبة أو تعيرها أي اهتمام، فاتجهت أقرب الممرضات إليها ولكزتها في كتفها لكزة خفيفة وأشارت إلى الطبيبة. فانتبهت سلمى ونظرت حيث أشارت وبدت كأنها تخرج من حالة سبات فأعادت الطبيبة نائلة جملتها في هدوء وود.

فتحت المرأة فمها لتتكلم فخرج منها صوت عذب، لم أسمع من قبل أحد يتكلم فتخرج الكلمات من فمه بإيقاع خاص ونغمة رقيقة كهذه!

ـ لا أشعر أنني بخير، بالأمس راودني حلم غريب، لا زالت أحداثه مستمرة وشخصياته تتحرك حولي. أعي أنه حلم، ولكنه يبدو كالحقيقة حتى أنني أكاد ألمس تلك المرأة التي تقف أمامي وأشعر بأنفاسها.

ما قالته كان صادمًا لي! لم أكن أتوقعه، فما أعرفه هو أن هذه المشفى للمكتئبين وليس أصحاب الهلاوس!

ـ كم شخصًا يظهرون أمامك الآن يا سلمى؟

ـ أربعة؛ ثلاثة يتشاجرون والرابعة تقف أمامي مباشرة وتنظر لي!

ـ هل تنظر إليكِ بغضب؟

ـ لا، بل بحزن. تبدو حزينة من أجلي!

ـ والآخرون، علامَ يتشاجرون؟

ـ على أنهم لا يجب أن يكونوا هنا وأن يرحلوا ويعودوا إلى الحلم.

ـ كيف تتعاملين مع الذي ترينه الآن؟

ـ فقط أنظر إليهم، لا أعرف ما المفروض أن أفعله فهم ليسوا حقيقيين. أليس كذلك؟

قالت سؤالها باستجداء، وكأنها ترجوا الطبيبة ألا تخيب رجائها وتقول لها إجابة مختلفة.

ولم تخذلها الطبيبة بالفعل وأومأت لها بثقة قائلة:

ـ بالتأكيد ليسوا حقيقيين، تبذلين جهدًا رائعًا عزيزتي. الآن يدرك عقلك الفرق بين الحقيقة والخيال وهذا حقًا رائع. فتجاهليهم وحاولي التركيز معنا وستجدينهم يختفون. وبتكرار تجاهلهم لن يعودوا مرة أخرى. انصتي إلى العزيزة ميرنا. تفضلي يا ميرنا تحدثي معنا عما يجول في خاطرك.

وفهمت ميرنا أن هذا دورها لتتحدث فنظرت نحو نائلة بحدة، كانت فتاة صغيرة لا تتجاوز الثالثة والعشرين على أحسن تقدير:

ـ اذهبي إلى الجحيم.

كانت عبارتها مفاجأة لي ومضحكة، وبدت كترجمة لعبارة شهيرة في فيلم أمريكي! فلم أتمالك نفسي وضحكت بصوت عالٍ، فكان نصيبي صفعة! نعم صفعة من تلك الفتاة الصغيرة. اندفعت في ثانية كالبرق نحوي وصفعتني. وبدون وعي مني هجمت عليها وسقطنا ارضًا. كان ما يحدث غير مفهوم لي! شيء خارج إدراكي وكأنه يحدث على مسافات وأبعاد تتجاوز عقلي وحدوده.

فتحت عيني فوجدتني على فراشي وفي غرفتي التي تركتها منذ لحظات! كيف جئت هنا؟! أين تلك الفتاة التي كنت أتعارك معها؟! لماذا لا أتذكر أي شيء بعد هجومي عليها !

نهضت بتثاقل وجلست في مكاني وأنا أحاول التذكر، مع شعور غريب بالخوف! ليس هذا ما توقعته أبدًا. كم كنت غبية لمجيئي إلى هذا المكان. لسن مريضات اكتئاب وراغبات في الموت. إنهن مجنونات !

نهضت وأنا عازمة على الرحيل من مشفى المجانين تلك. جمعت أشيائي وارجعتها إلى الحقيبة وحملتها في عزم وفتحت الباب لأعود إلى بيتي..

لم أكد أخطو بضع خطوات حتى شعرت بكف يوضع على كتفي مع صوت متعجب يقول:

- إلى أين؟!

التفت إلى مصدر الصوت والكف فوجدتها احدى الممرضات اللاتي كن يقفن على الباب في غرفة الاجتماع التي تشاجرت فيها، فواجهتها بغضب وقلت بصوت حانق:

- سأخرج من هنا، ألديكِ مانع؟

ابتسمت ابتسامة غريبة وهي تجيبني:

- المانع لديكِ أنتِ يا عزيزتي، فلم يكتمل شفاؤك بعد.
- أنا لست مريضة.
- فلماذا جئتِ إلى هنا؟
- لا شأن لكِ، لست مسجونة لتمنعيني وليس هذا سجنا.

تنهدت كمن فقد صبره وجذبتني من ذراعي لتعيدني إلى غرفتي وهي تقول:

- هيا، لا داع لكل هذا الوقت والجدال الفارغ، عودي إلى غرفتك.

نزعت يدي بعنف وأنا أصرخ:

- ابتعدي عني، لن أبقى هنا دقيقة واحدة بعد الآن.

أتى على صوت صراخي ممرضتان وحارس أمن لمحتهم في نهاية الرواق، فاندفعت راكضة في الاتجاه المضاد لأهرب منهم، ولمحت أثناء ركضي بعض أولئك النسوة اللاتي رأيتهن في قاعة الاجتماعات وهن يقفن في الرواق على مسافات من بعضهن وينظرن إلى!

شعرت بأنني مطاردة من الجميع فألقيت بحقيبتي لأصبح أخف وزنا وأستطيع الركض أسرع، ولكن حين وصلت إلى أعلى الدرج ووضعت أول قدم عليه شعرت بنفسي أهوى من أعلاه إلى أسفله ارتطاما واحتكاكا حتى استقر جسدي أرضًا وهو ينزف وشعرت بألم رهيب فلمحت تلك الوجوه الكريهة تطل عليَ من اعلى فأغمضت عيني ولم أعد أشعر بشيء..

**********

# الفصل الثاني

للمرة الثانية استيقظ على سريري في تلك المشفى المخيفة! ولكن هذه المرة وجدت ضمادات على يدي وقدمي ورأسي، وتذكرت سقوطي من أعلى الدرج فتنهدت بحرقة وغيظ. ومر بعض الوقت ثم سمعت طرقا خفيفا على الباب وظهرت تلك الطبيبة نائلة.

- مساء الخير، أتمنى أن تكوني بخير اليوم.

- لا لست بخير، ولن أكون بخير حتى أخرج من هذا السجن.

- لا تسميه سجنا، نحن هنا لمساعدتك.

صرخت في وجهها:

- لست مريضة، هل تفهمين هذا؟

أومأت برأسها وابتسمت بلطف:

- نعم عزيزتي أعلم، ولكن عليكِ أن تهدئي وأعدك عندما تشفين من جراحك سأسمح لكِ بالمغادرة.

تنهدت في يأس وقلت وأنا أغمض عيني بقهر:

- تبًا.

**********

مرت الساعات بطيئة.. يأتون لي بالطعام، يبدلون لي الضمادات، يبتسمون بود أحيانا وأحيانا ألمح نظرة غريبة لا أفهمها! مر اليوم الثاني والثالث هكذا دون تغيير، حتى سئمت الرقاد وشعرت باختناق ورجوت نائلة أن تسمح لي بالخروج إلى الحديقة ولو لساعة واحدة. أعلم أن التواء قدمي لن يسمح لي بالهروب وهم لن يسمحوا لي بالخروج إلا بعد شفائي، لهذا قررت انتظار يومين آخرين قبل أن أفكر في الهروب ثانية. بالفعل سمحت لي بالخروج إلى الحديقة رفقة احدى الممرضات .

اجلستني على أحد المقاعد وسألتني إن كنت أريد شيئا فهززت رأسي بالرفض فتركتني وانصرفت. الحديقة على اتساعها كان يوجد بها القليل من المريضات، كلهن يجلسن في تباعد، أو يسرن بغير هدى، وكأنهن في حلم! صرفت نظري إلى السماء، اشتقت إلى هذا البراح الجميل والاحساس بدفء الشمس ومداعبة الهواء وصوت العصافير. لم أكن أعلم أنني أحب مظاهر الحياة تلك إلا الآن. ربما لأنه تم حرماني منهم وقد كان وجودهم من المعتاد. انتبهت من تأملاتي على صوت شخص يجلس بجواري يسألني:

ـ ما اسمك؟

التفت.. كانت سلمى، تلك المرأة صاحبة الهلاوس التي قابلتها في القاعة منذ يومين! كانت ترتدي قميصا أزرق وتنورة طويلة سوداء، وتعقص شعرها الأسود الطويل إلى الخلف وعلى عينيها نظارة جذابة. لا أعرف لماذا شعرت لوهلة أنني أعرفها من قبل! ليس من يومين فقط، بل من قبل ذلك بكثير!

ـ فريدة

ـ اسم قديم، هل تحبينه؟

أجبتها بلا مبالاة:

ـ هو اسم كأي اسم، لا أحد يختار اسمه.

ـ لكن ماذا لو اختاروا لكِ اسما كريها، أو غريبا وأصبح موضعا للتنمر؟

ـ سأحاول تغييره بالتأكيد.

ـ وماذا لو كانت عائلتك بمثل هذا الوصف؛ كريهة وغريبة، هل ستغيرينهم؟

كان سؤالا غريبا! وتذكرت سلمى هذه حين قالت إنها ترى أشخاصا غريبين خرجوا من الحلم أمامها !

ـ لن أستطيع تغييرهم بالطبع ولكن ربما سأبتعد عنهم .

ـ وماذا لو كانوا هنا؟

وأشارت بعنف نحو رأسها وأردفت:

ـ كيف ستبتعدين؟!

بشكل ما فهمت ما تقصده، ولكنني لم أجد ردا، وآثرت أن أصمت. وصمتت هي، ورفعت عينيها ونظرت نحو السماء كما كنت أنظر وسمعت منها تنهيدة حارة، واغمضت عينيها في سعادة واضحة! ثم بشكل مفاجئ شعرت بيدها على يدي وهي لازالت مغمضة عينيها ورأسها مرفوع إلى الأعلى! لم أسحب يدي، شعرت بدفء يدها فاستسلمت لهذا الدفء.. وحينها أدركت كم أنا وحيدة!

كنت احتاج لتلك اللمسة التي تذيب ثلوج الوحدة وتذهب بما أشعر به من ضعف. حاولت أن أتذكر منذ متى لمس أحد يدي بهذا الدفء فلم أتذكر! ومتى آخر مرة عانقت فيها إنسان فلم أتذكر أيضا!

غريب!! ألم أعد حتى أعانق ابنتي؟ !

ـ لا أحد سيفهمك مثلما تفهمين نفسك، لن ينجحوا في علاجك وحدهم، فالجرح هنا..

ومدت يدها الأخرى ووضعتها على قلبي .

لماذا تبدو لي قريبة ومألوفة بهذا الشكل؟! من هذه المرأة؟!

وكأنها قرأت أفكاري، سحبت يديها وأراحت ظهرها إلى الوراء وقالت وهي تنظر إلى البعيد:

- أنا وأنتِ لا ننتمي لهذا المكان، ولكننا نحتاجه .
- وما حاجتك إليه؟ ولماذا أنتِ هنا؟
- لأجد نفسي، فهي تائهة في زحام كبير .
- كيف جئتِ إلى هنا؟
- لا أعرف! استيقظت ذات يوم ووجدتني هنا، أو ربما غفوت ذات يوم وحلمت أنني هنا، ولا زلت في هذا الحلم.

قالت هذا ثم التفتت بحركة مفاجئة نحوي وسألتني:

- هل نحن في حلم؟
- لا
- إذًا لماذا يبدو كل شيء غريب وغامض؟
- ربما لأن عقلك مرهق، تحتاجين للراحة .

تنهدت تنهيدة خافتة ثم قالت:

- بل أحتاج الحب.

فوجئت بعبارتها! وكأنها سكين رشقتها في قلبي، أو كأنها أدارت مرآة بشكل مفاجئ نحو أعماقي فرأيت ما حاولت اخفاؤه منذ دهر ..

**********

هذه المرأة "سلمى" ظلت تشغل تفكيري حتى بعد أن عدت إلى غرفتي. لا أدري كنه هذا الوثاق الذي قيدتني به إليها! في المساء تم استدعائي إلى غرفة الحوار كما يسمونها، وهي الغرفة التي تقابلت فيها مع بقية النساء، لهذا ذهبت وأنا أشعر بالقلق، فلقائي السابق بهن لم يكن ودودا وانتهى بمشاجرة. المشهد حين دخولي يبدو معادا ومكررا، كن يجلسن بنفس ترتيب جلوسهن، نفس النظرات وتعبيرات الوجه، ونفس كلمات نائلة في استقبالي! هل نسيت أنها عرفتني عليهن في المرة السابقة؟! تلاقت نظراتي مع "ميرنا" الفتاة التي صفعتني في المرة السابقة. كانت نظرات تحدي، هذا كان واضحا. جلست في صمت وبدأت نائلة كالمرة السابقة تطلب من كل واحدة منهن أن تتحدث. هذه المرة تحدثت فتاة جديدة؛ كانت تنظر إلى الأرض بخجل، وتقوم بعمل دوائر صغيرة بقدميها. خرج صوتها طفوليا جدا، حتى الكلمات التي خرجت من فمها كانت تعبيرا مجسدا عن هذه الطفولية :

- لست أنا من قام بتحطيم تلك النافذة، ولكنهم عاقبوني بشدة. لست أنا من أخرج محتويات الأدراج وبعثرها، ولكن تم عقابي بسببها. أقسمت أنني لم أفعل، فلم يصدقوني.

سألتها نائلة: من هم؟

- أمي، وخالتي .
- ومن الذي حطم النافذة وبعثر الأدراج؟

خرج صوت الفتاة حائرا:

- لست أدري!
- كيف كانوا يعاقبونكِ؟

- يحبسونني في غرفتي بلا طعام يوم كامل. شعرت بالجوع كثيرا، لكنني شعرت بالحزن أكثر .
- وأين كان والدك؟
- لم يكن يعيش معنا، ولم أره إلا مرة واحدة فقط.
- متى؟ وماذا حدث في هذا اللقاء بينك وبينه؟

صمتت الفتاة! لم ترد، حتى بدا وكأنها لم تسمع السؤال! فكررته الطبيبة فرفعت الفتاة رأسها لأول مرة واستطعت أن أرى ملامحها بوضوح؛ كانت ذات ملامح طفولية بالفعل، تبدو في الثانية عشرة، ولكن بالتأكيد هي أكبر، فلا يعقل أن تكون صغيرة إلى هذا الحد! حينما رفعت رأسها كانت ملامحها تنذر بعاصفة. فلقد كانت تتجمع فيها سحب الكآبة لتنذر بسقوط أمطار البكاء. فسارعت الطبيبة بتغيير دفة الحديث، وقالت لها برقة:

- تستطيعين أن ترتاحي عزيزتي.

فأعادت الفتاة رأسها إلى وضعه الأول وكأنها إنسان آلي تم إيقافه عن العمل!

وحدث بعد هذا ما كنت أخشاه، حيث وجهت الطبيبة نظرها نحوي وكأنها تقول لي هذا دورك. ولكن أنقذتني تلك المرأة التي اندفعت تقول:

- لماذا تتجاهلينني دائما؟!

كان سؤالها موجها نحو نائلة بقسوة، وتجاهلت الطبيبة هذه القسوة وأجابت في هدوء:

- سيأتي دورك بالتأكيد، ولكن أريد أن أسمع فريدة الآن.
- هذه البلهاء لن تقول شيئا فهي مجرد بالون فارغ.

هذه الإهانة غير المتوقعة جعلتني أقف بغضب وأنا استعد لمعركة جديدة وكأنني آتي لهذه القاعة للعراك فقط! يبدو أنني سأسميها غرفة المعارك.

ولكن هذه المرأة المجنونة انطلقت في الضحك! تسخر مني بالتأكيد وهذا مالا احتمله، فقفزت نحوها وامسكت بعنقها أريد هرسه بين أصابعي.

ولكن احتوت يدي تلك اليد الدافئة التي احتوتني من قبل في الحديقة؛ كانت يد "سلمى" فلانت يدي دون إرادتي عن عنق تلك المرأة المستفزة. وابتسمت سلمى

لي وتركت يدي حين استعدت هدوئي، ثم عادت لتجلس في مقعدها وتنظر أمامها وكأنها لم تتحرك منذ لحظة. وسمعت نائلة تقول بهدوء:

- اجلسي يا فريدة.

فجلست بعد أن رمقت ليلى بنظرة احتقار. علمت اسمها حين نادتها نائلة باسمها وطلبت منها أيضا أن تجلس. كيف أن هذه الحيزبون اسمها ليلى! تم إهانة هذا الاسم كثيرا، فلم يعد يعبر عن الرومانسية .

فلا بد أن قيس يعمل قاطع طريق لو هذه هي ليلى!

- لماذا تبتسمين؟

نظرت إلى محدثتي وكانت تجلس عن يساري ولا أعرف لماذا لم ألاحظها سوى الآن!

كانت تبدو في مثل عمري، ولكنها أكثر مني جمالا ورونقا. تشع نظرة عينيها بالحياة، كان هذا ملفتا للنظر بالنسبة لي حيث أن كل من حولي بما فيهم أنا نظرتهم منطفئة وأعينهم ليس بها مثل هذا البريق، غابت الحياة خلف ذاك الضباب من المشاعر المضطربة والمشكلات المحيطة بمعصم أرواحنا .

- مرت بخاطري فكرة مضحكة.
- عن قيس؟
- ....

لم أستطع أن أجيب، فقدرتها على قراءة أفكاري أشعرتني بالخوف !

- ما اسمك؟

هذا السؤال لم يكن مني أو موجها لي، بل كان موجها من نائلة إلى تلك المرأة قارئة الأفكار! عجيب جدا! كيف لا تعرف اسمها! هل هي جديدة هنا؟!

لم ترد المرأة على نائلة ومالت نحوي وهي تهمس في أذني:

- سآتي اليوم لغرفتك، أريد أن أتحدث معك.

نظرت نحو نائلة أستغيث بها، فلقد شعرت بالخوف!

ويبدو أن تلك الطبيبة الذكية فهمت ما بي لأني رأيتها تنهض وتمسك بيدي وتقول بود:

- هيا يا عزيزتي، فلتصعدي إلى غرفتك لتستريحي.

وسارت معي حتى غرفتي، فسألتها:

ـ أريد أن أعود إلى بيتي، هل يوجد مانع لذلك؟

ـ نعم عزيزتي، فأنتِ تحتاجين إلى رعاية، وواجبنا يحتم علينا ألا نتركك حتى تمام التعافي.

ـ ولكن اتفاقي مع مدير المشفى أن أغادر في الوقت الذي أرغبه أنا، فهذه سياسة هذه المشفى، أليس كذلك؟

ابتسمت ابتسامة لطيفة وهي تجيبني:

ـ بالتأكيد، ولكن أنتِ بالفعل تحتاجين لنا، خروجك الآن مضر لكِ جدا، واجبنا يمنعنا من أن نسمح لكِ بأن تضري نفسكِ، على الأقل انتظري حين تلتئم جروحك وتشفى قدميكِ.

شعرت بأنه لا فائدة من هذا الحوار، وكنا قد وصلنا إلى غرفتي، فخطر في بالي صورة الفتاة الصغيرة ووجودها هنا:

ـ ما عمر هذه الفتاة التي تحدثت عن أن والدتها وخالتها كانتا تسيئان إليها؟

ـ عشرة أعوام تقريبا.

رفعت حاجبيا في دهشة!:

ـ وكيف تسمح سياسة المشفى بوجود أطفال هنا؟

ـ النفوس المعذبة لا عمر لها عزيزتي، الأعمار للأجساد فقط.

ـ ولكن وجود طفلة مع بالغات ربما يسبب لها ضررا آخر.

ـ وربما وجودها مع أطفال في مثل عمرها يكون أشد ضررا، لا توجد قاعدة ثابتة حين تتعاملين مع النفس البشرية.

ـ حسنا، ما مشكلتها؟

هزت رأسها وتنهدت بصوت هادئ وهي تفتح باب غرفتي وتدعوني للدخول:

ـ مشكلتها هي أنها عاشت في بيت لا يعرف الحب، الأم والخالة كانتا منهزمتان من الداخل، لا حب ولا دفء، احداهما تركها زوجها والثانية كانت تكره الرجال بسبب معاملة زوجها القاسية، ولم تنجب.

لم ينقذها موته، لأنه قتلها قبل أن يموت، فعاشت مع أختها المطلقة بلا روح، امرأتان تعانيان في بيت واحد، بيت حزين به طفلة وحيدة، كانت هي متنفس غضبهما من كل شيء.

جلست على حافة الفراش وأنا أشعر بالأسى على الفتاة، وسألت نائلة:

ـ هاتان المرأتان تعرضتا للإساءة من رجلين، فلماذا قسيا على الطفلة وهي أنثى ضعيفة؟! الطبيعي أن يكونا أكثر حنانا واحتواءً لها، باعتبارها أنثى مثلهما.
ـ قلتِ "الطبيعي"، وهما ليستا طبيعيتان، كانتا أكثر هشاشة من إدراك ما تقوليه، ما تعرضتا له أصابهما بجفاف تام، لم يتبق لهما سوى قلب يضخ الدم ليحيا فقط، أما الشعور والمشاعر والدفء، كل هذه أشياء لم يعد لها وجود بداخلهما، أو ربما ظنتا أنهما بقسوتهما عليها سيجعلانها تنشأ أكثر قوة فلا يظلمها أحد أو يقهرها. الخلل النفسي يجعل الإنسان لا يفكر بصورة جيدة، كل شيء يصبح مشوشا حين تهتز صلابة النفس.
ـ كم هذا محزن، فالفتاة الآن تعاني، وربما حين تكبر وتنجب ستجعل ابنتها تعاني أيضا، ولن تتوقف تلك المعاناة، طريق طويل مظلم والسائرون فيه أموات. لهذا يجب ألا يتزوج المرضى النفسيين، حتى لا ينجبوا معذبين آخرين.
نظرت لي نائلة نظرة لم أفهمها، ولكنها ربتت على كتفي قائلة:
ـ استريحي عزيزتي، لا ترهقي نفسك بالتفكير كثيرا.
ثم اتجهت نحو الباب وخرجت واغلقته وراءها.

**********

جلست في غرفتي والقلق يرسم على جسدي وملامحي أفضل لوحاته.

كنت أنتظر تلك المرأة وأنا أتوكأ على جدار الأمل بألا تأتي. شيء بها مخيف! لا أعرف كيف ومتى نمت إلا أنني استيقظت فجأة على صوتها!

كانت تجلس بجواري على الفراش وتنظر نحوي بتركيز .

كدت أن أصرخ، ولكنني تراجعت حين قالت بهدوء:

ـ لا بد أن نهرب، أعلم أنك تريدين هذا وأنا أيضا.

ـ وكيف سنهرب؟

ـ لدي خطة. ولكن عليكِ أن تشفي أولا، لن أصطحب معي عرجاء تعرقلني.

هذا الأسلوب جعلني أرغب في صفعها، ولكنني أمسكت نفسي حتى لا تضيع مني فرصتي في الهرب .

ـ ما هي خطتكِ؟

ـ نتنكر في زي ممرضات. سيقيمون حفلة بمناسبة رأس السنة بعد عدة أيام، سنهرب في هذا اليوم. كوني مستعدة.

قالت هذا وانصرفت..

وظللت أفكر فيها وفي خطة الهروب الغريبة تلك.

**********

في قاعة الإفطار جلست وحدي على احدى الطاولات، تحاشيت النظر لأي أحد من الموجودين.

تناولت افطاري ببطء وفكرة واحدة تلح علي؛ وهي الاتصال بابنتي، شيء ما بداخلي يأمرني بضرورة أن أفعل.

وعزمت على النهوض، والاتجاه إلى قاعة الاستقبال لأتصل من الهاتف الموجود بها لأنهم أخذوا هاتفي عند دخولي إلى المشفى، وقبل أن أفعل، جلست قبالتي تلك المرأة المحيرة وصاحبة خطة الفرار المريبة:

- لا تفعلي.
- لا أفعل ماذا؟
- لا تتصلي بابنتك.

حدقت فيها بدهشة:

- من أنتِ؟ وكيف تستطيعين قراءة أفكاري بهذا الوضوح؟

-لا أعرف. ربما لأن ما تفكرين به هو نفس ما أفكر به.

-هل أنتِ لديكِ ابنة أيضا؟

- نعم.

- حسنا، لماذا لا تريديني أن أتصل بها؟

- لأنها ستبلغ الإدارة لو أخبرتها بخطة هروبنا.

قلت باستنكار:

- أنتِ مجنونة، مستحيل أن تفعل ابنتي هذا، بالتأكيد ستحاول مساعدتي.

مالت برأسها نحوي وركزت عينيها في عيني وهي تقول ببطء:

- هل أنتِ متأكدة من هذا؟

هممت بأن أجيبها وأؤكد لها باستحالة أن تفعل ابنتي هذا، ولكن قبل أن أنطق مر بذهني إصرار ابنتي على أن أخوض تلك التجربة وأنها هي من اختارت لي هذا المكان، وتلك النظرة الغريبة التي كانت في عينيها حين أخبرتها بنجاحي في الالتحاق بتلك المشفى.

ألجمت لساني تلك الذكريات فلم أستطع الرد، ولمحت شبه ابتسامة في عين محدثتي زادت من حيرتي وصمتي.

- ما اسمك؟

هذا ما استطعت التلفظ به بعد فترة التلجيم تلك:

- لا يهم الاسم كثيرا، ومع ذلك فاسمي غيداء.

قالت هذا وانصرفت. ونهضت لأسير قليلا في الحديقة، كنت أحتاج لأن أرى الشمس مثل المرة السابقة، وبرغم قدمي المصابة استطعت أن أصل اليها، مع كثير من الإرهاق والتعب. فجلست على أول مقعد قابلني فيها. ولا أعرف لماذا تمنيت أن تظهر سلمى وتجلس بجواري كالمرة السابقة! وفجأة تذكرت أنني لم اكتب شيئا منذ جئت إلى هذا المكان!

لماذا لم يخطر في بالي أن أكتب وقد جئت من أجل هذا؟!

هل جئت من أجل أن أكتب رواية حقا، أم يوجد سبب آخر خفي في زاوية ما من عقلي؟!

حاولت أن أجيب على السؤال ولم استطع.

صحيح ما أمر به جعل عقلي مشوشا وحالتي النفسية سيئة، ولكن يجب أن أستفيد من كل ما يدور حولي فهو مادة جيدة جدا، كما أن الكتابة تجعلني أفضل، أشعر باحترام كبير لنفسي حين أكتب، فهذا ما يميزني، وهذا نجاحي الحقيقي في هذه الحياة، حياتي ممتلئة بشخصيات رواياتي وأحداثها وهذا الزخم الذي تجلبه لي. إعجاب القراء ورسائلهم واللقاءات الصحفية والأدبية، سهرات وأصدقاء ..

توقف عقلي عند كلمة "أصدقاء".

تبدو ككلمة مزيفة بالنسبة لي، ليست حقيقية فلا أصدقاء لي، كلهم إما وجوه معروفة ورفقاء وقت أو زملاء مهنة أو أصحاب مصالح أو عابرون، ليس منهم من يمكن أن اعتبره صديق. لا نساء ولا رجال، كلهم يمرون في حياتي مر الكرام، لا ارتباط ولا قيود. الآن أدرك أنني من اخترت هذا، هذه المسافة التي أمدها حولي وتبعدني عن الآخرين كانت دائما السياج الحامي لي من أذى البشر.

فالتعلق بالبشر يفتح أبوابا من الجحيم، وما حاجتي إلى الجحيم؟

بل ما حاجة البشر للبشر؟ لو يعقلون مثلي لوفروا على أنفسهم الكثير مما يعانونه ويملؤون حياتهم به. أو يتعلمون كيف يكونوا بناؤون، يبنون مستقبلهم ويرسمون الحدود والمسافات بينهم وبين كل ما يؤذيهم.

هذه حريتي ومساحتي التي تحميني من كل تلك المشكلات التي تحدث لأبطال رواياتي، أنا في مأمن من العلاقات المؤذية والارتباطات المقيدة والمتطلبات المرهقة.

حتى الشخصيات التي تبدو لي جذابة لأول وهلة سرعان ما تسقط جاذبيتها بمجرد انتهاء اللقاء وعودتي لأوراقي وقلمي.

أوراقي وقلمي هي عالمي الذي صنعته لنفسي، وشخصيات رواياتي هم مخلوقاتي وابداعي وتفردي، أتحكم في كل شيء، حتى في أمنياتهم وأفكارهم، شعور ممتع وعظيم حين أوجه شخصيات رواياتي كما أريد وأصنع أحداث حياتهم كما أرغب وأجعلهم يعيشون وفق مزاجي. سيطرة كاملة أنال عنها التصفيق والإعجاب لأنني أفعل هذا بمنتهى البراعة.

وعاد السؤال يدق في عقلي: لماذا لم أشعر بحاجتي إلى الكتابة في هذا المكان إذا كنت جئت إليه لهذا السبب؟

حتى أنني لم أكتب أي ملاحظات كما اعتدت أن أفعل! ربما لأن رغبتي في الخروج من هذا المكان تشغل كل عقلي، الفرار هو كل ما أفكر فيه الآن..

**********

جلست حوالي الساعة ثم قمت واتجهت إلى غرفتي مرهقة حزينة متهاوية الأفكار. وأثناء مروري بغرفة المدير في طريقي إلى غرفتي، شاهدت نائلة وهي تدخلها، فدفعني فضولي لأسمع حوارهما، فاقتربت بحرص، وألصقت أذني بالباب لألتقط أي كلمة.

- عليكِ بمحاولة التقرب إليها أكثر، أوشكنا على النجاح.
- لا أعرف، ولكنني أخشى من حدوث مالا نتوقعه.
- لا تخشي هذا، أراها الآن أكثر ضعفًا وبالتالي تحكمنا فيها سيكون أسهل.
- إنها لا تثق بنا، ولن تتوقف عن محاولات الهرب.
- هذا طبيعي، خاصة أنها بدأت تكتشف الحقيقة. لن تستسلم بسهولة.
- أتمنى أن تمر المرحلة القادمة بسلام فهي الأصعب.
- نعم، ولكن أعلم أنكِ تتحكمين بكل الخيوط وتستطيعين غزلها كما تريدين، أثق بكِ فأنتِ الأفضل هنا.
- شكرا لك، وأتمنى أن أكون دائما عند حسن ظنك.
- على الرحب، مع السلامة.

أسرعت بالابتعاد عن الباب قبل أن تخرج نائلة وتراني. ووصلت إلى غرفتي دون أن ألتفت، فلا أعلم هل رأتني أم لا. ولكن هذا لا يهمني الآن، ما يهمني هو ما سمعته، يتحدثون عني بالتأكيد! ما سمعته أشعرني بالخوف وبمزيد من الإصرار على الهرب حتى ولو لم أفهم مغزى الحديث بشكل كامل، إلا أنه أكد لي أنهم لن يسمحوا لي أبدا بالخروج، وأنني معتقلة لديهم وأنهم يخططون لشيء مخيف.

********

كنت أريد التحدث مع غيداء بشدة، ولكنني لا أعرف رقم غرفتها، لهذا قررت البحث عنها. فخرجت من غرفتي وسرت لأبحث عنها في أنحاء المشفى وغرفها.

ولكنني لم أجدها في غرفة الطعام أو الحوار أو حتى الحديقة! فقررت الانتقال إلى الجزء الأصعب، وهو البحث في الغرف. وبدأت بالدور الأول. فقابلتني احدى الممرضات قبل أن أطرق أول باب:

- لماذا أنتِ هنا؟ غرفتك في الدور الثاني، هل آخذك إليها؟
- لا شكرا، أنا أبحث عن غيداء.

فرددت بتعجب:

- غيداء؟ !
- نعم، هي امرأة نزيلة هنا، تعرفت عليها في غرفة الحوار، في نفس عمري تقريبا.

نظرت في عيني لحظة، ثم هزت رأسها بفهم وابتسمت وهي تقول:

- نعم عزيزتي، هي نزيلة هنا، ولكن لا أتذكر رقم غرفتها. تعالي معي سأعيدك إلى غرفتك ثم أبحث لكِ عنها وسأجعلها تأتي إليكِ في غرفتك.

وقبل أن اعترض أمسكت بيدي واتجهت بي إلى الدور الثاني، ولم أشأ أن أثير جدالا معها وآثرت السلامة، خاصة أن قدمي صارت تؤلمني بسبب هذا البحث الطويل .

وعدت بالفعل إلى غرفتي ورقدت على سريري وأنا أتمنى أن تصدق الممرضة وترسل لي غيداء .

وبالفعل بعد دقائق سمعت طرقات على الباب ودخلت غيداء.

- نظرت نحوي بوجهها الصافي المشرق وهي تقول بمرح:
- يبدو أنني أصبحت مهمة عندك !

لم أبادلها مرحها، ولكنني نهضت من الفراش وأنا أقول بلهفة:

- غيداء، أريد حقًا الفرار من هنا.
- قلت لكِ سنهرب يوم رأس السنة .
- لا، لا أستطيع أن أنتظر، لابد أن أهرب اليوم.
- هذا مستحيل.
- لا أعرف ما الذي سيحدث لي إذا بقيت هنا أكثر من هذا.
- اطمئني لن يحدث لكِ شيئا، هم لا يعرفون أننا نخطط للهرب، لهذا يتحركون معنا ببطء.

نظرت نحوها بدهشة وسألتها:

- وما الذي يتحركون إليه؟ ما هي خططهم لنا؟

قالت ببساطة وهي تجلس على حافة الفراش:

- التخلص منا بالطبع، قتلنا.

قالت الكلمة الأخيرة وهي تبتسم! أي جنون هذا!!

فصرخت في وجهها:

- ما الذي تقولينه؟! لماذا يقتلوننا؟!
- لأننا بلا قيمة لهم، نحن مجرد حالات مرضية، فئران تجارب، أرقام لا معنى لها، وأسماء لا تهم أحد.

هتفت باستنكار:

- هذا كلام فارغ، أنا كاتبة شهيرة، يعرفني الآلاف، اسمي علامة في عالم الأدب. لي جمهور كبير من القراء.

ابتسمت بعينيها ولم ترد ..

- لماذا لا تردين؟!
- لأنك لا تريدين ردًا، بل فقط موافقة على كلامك. اسألي نفسك ببساطة هل لو قتلوكِ هنا ستهتز حياة أحد من قرائك أو سيسعى للانتقام لكِ؟

لكل منهم حياته وأحباءه، لستِ سوى كاتبة من عشرات الكتاب الذين يقرأون لهم، لا يتعدى اهتمامهم بكِ اهتمامهم بشخصيات رواياتك، هم الحقيقة بالنسبة لهم وأنتِ الخيال، الظل الذي يمنحهم تلك المتعة المقروءة، فيشكرونها ويلوحون لها بسعادة ثم.. لا شيء. يعودون لحياتهم وينسونك .

مشكلتك أنكِ تعطين نفسك أكبر من حجمها، لستِ أفضل منا، ولا تستحقين مالا نستحقه نحن، ما قيمة أن تكوني كاتبة، تكتب عن شخصيات خيالية وحيوات زائفة ولا أحد يريدك أنتِ، أو يهتم بمشاعرك أو يشعر بأن حياته ينقصها شيء بدونك؟

أنتِ مهمة فقط لنفسكِ، فلا تصدقي تلك الهالة الكاذبة التي صنعها خيالك، قد تموتين هنا ولا يشعر بكِ أحد أو يهتم.

- هذا كثير.. هذا كثير.. كفى.. كفى..

ظللت أردد هذه الكلمات بلا صوت. كان صداها يشق صدري ويفجر رأسي.

أمسكت برأسي وركعت أرضا. لم أبال بألم قدمي فالألم الذي يتأجج في داخلي كان أقوى .
وفي تلك اللحظة المؤلمة طرق الباب مرة أخرى، ودخلت سلمى..
لم أرفع رأسي لأعرف من القادم، ولكنني سمعت صوتها الهادئ وهي تناديني باسمي، وشعرت بيدها الدافئة وهي تضعها على كتفي ..
رفعت رأسي ببطء نحوها، كانت تنظر لي بحنان أحتاجه بشده .
فهمت الآن أنني أضعف مما كنت أعتقد دوما، أدركت وحدتي، أدركت غبائي. ومرت أحداث مضطربة في ذهني ومشاهد كلها أظهر فيها وحدي؛ أعاند، أكابر، أصرخ، أرفض، أجرح، أهمل، أفارق، أغلق الهاتف بشدة، أغلق الباب بقسوة، أرمي كل شيء ورائي وأرحل. وبقي في النهاية مشهد واحد أخذ في الاتساع ببطء؛
عزلتي وحدي في غرفتي..
هذا الشريط الحزين مر في ذهني ونظرة سلمى الدافئة لازالت تتعلق بعيني الدامعة، تحتويهما، تعانقهما، تربت عليهما برفق، تخبرهما أنهما ليسا وحدهما، هناك من يهتم..
أمسكت بيدها التي على كتفي وتوكأت عليها وقمت، لم أكن أشعر بأنني أحتاج لكلمات الآن، أردتها فقط أن تظل تربت بعينيها على عيني، أن تدفئني بنظرتها وتحذف هذا الشريط الموحش الذي مر أمامي منذ لحظات..
لم تتكلم هي أيضا.. ولكنها سحبتني إلى الفراش وارقدتني عليه، ثم سمعتها تقول بحنان:

- أغمضي عينيكِ ونامي عزيزتي، فالرحلة قاربت على الانتهاء.

لم أفهم أي رحلة تقصد، ولكنني أغلقت عيني ونمت.

لا أعرف كم مر من الوقت ولكنني حين استيقظت شعرت برغبة شديدة في الصلاة، مر زمن طويل منذ كنت أصلي، متى تركت الصلاة؟
حاولت أن أتذكر ولم أستطع!
اتجهت إلى الحمام وتوضأت ثم خرجت ابحث عن سجادة للصلاة في الغرفة ولم أجد، فافترشت الغطاء الذي اتغطى به واقمت الصلاة وشرعت فيها..
لا أستطيع أن أصف هذا الهدوء الذي شعرت به وذاك الاطمئنان.
جزء مني كان يستكين، كطفل يخلد لحضن أمه بعد يوم طويل من اللعب والتعب.

شكوت إلى الله حزني ووحدتي، ورجوته أن يساعدني على النجاة.
انتهيت من الصلاة فظهرت سلمى على باب غرفتي، كانت تنظر لي وتبتسم
ـ لماذا تركتي باب غرفتكِ مفتوحا؟
ابتسمت لها وأجبتها وأنا أنهض وألملم سجادة صلاتي وأعيد فرشها على السرير:
ـ لم أتركه مفتوحا ولكن ربما احدى الممرضات أو العاملات دخلت غرفتي وخرجت وأنا نائمة ولم تغلقه.
ـ تنامين كثيرا يا عزيزتي
ـ سمهِ هروبا من الواقع، لا يستحق الواقع أي انتباه.
ـ حزنك أصبح ملازما لكِ، ترفقي بنفسكِ.
ـ وأنتِ لِمَ لا تترفقين بنفسكِ؟
ـ ماذا تقصدين؟
ـ لماذا تجعلين تلك الخيالات تقيدك هنا؟ تحرري منها ومنهم.
ـ ساعديني
ـ كيف؟!
ـ يجب أن تعرفي أنتِ كيف تساعديني.
نظرت إليها بحيرة:
ـ لا أفهم!
ـ ستفهمين قريبا، فقط عليكِ أن تتماسكي، أراكِ تستسلمين للانهيار، وهذا هو هدفهم، يريدونكِ ضعيفة.
ـ لماذا؟
ـ هذا هو الحال هنا، كلنا ضعفاء. هل تعلمين لماذا تنقسم الخلية؟ تنقسم لتعوض الجسم الخلايا التي تموت، لو لم تفعل، لمات الجسم وماتت معه الحياة. كلنا محاولات للنجاة.
ـ كلامك عجيب يا سلمى، وتأثيرك علي أعجب!
ركزت عينيها في عيني وهي تقول:
ـ هل حقا لي تأثير عليكِ؟
أومأت برأسي دون أن أجيب..
ابتسمت ابتسامة لطيفة وامسكت يدي لنجلس على الأرض متجاورتين مستندتين بظهرينا إلى السرير، مرت لحظات صمت وكلا منا تنظر أمامها إلى اللا شيء. ثم سمعتها تقول:

ـ هل تشعرين بهذا الهدوء؟
أجبتها:
ـ نعم
ـ لن يطول، ربما سيكون الهدوء الذي يسبق العاصفة، كوني مستعدة.
قلت في حيرة:
ـ أستعد؟!
ـ نعم، كما كنتِ دائما، ألم تكوني طوال حياتك في حالة استعداد لكل شيء؟ لا أظن شيئا فاجئك، كنتِ تظهرين رباطة جأش في مختلف المواقف.
ابتسمت وأنا ألتفت إليها وأقول:
ـ تتحدثين عني كأنكِ تعرفينني منذ زمن.
التفتت نحوي هي أيضا وقالت لي:
ـ هل تشعرين أنني غريبة عنكِ؟
حركت رأسي ببطء علامة النفي. فأكملت كلامها:
ـ أنا أيضا أشعر بأنكِ قريبة مني. لهذا لا أريدك أن تبتعدي، لا تجعلينهم يخيفونكِ. أنتِ ذكية ولكن ينقصكِ شيئا هاما جدا وهو أن تتقبلي الحقيقة.
ـ أي حقيقة؟!
ـ حقيقة نفسك وحقيقة كل من حولك.
ـ وما هي حقيقة نفسي؟
ـ عليكِ أن تكتشفي أنتِ ذلك، توقفي عن الركض، انظري داخلك، تأملي في ملامحك، تعرفي على ما تخفينه، كوني صادقة.
ـ يبدو أنكِ تحاولين أخذ دور الطبيبة لو أنتِ بهذا الوعي لماذا أنتِ هنا؟!
قلت عبارتي الأخيرة بحدة وسؤالي باستهزاء، ضايقني أنها ترمي اللوم علي وتتهمني بعدم الصدق والإنكار.
لم تجيبني ونهضت وابتسمت وخرجت في هدوء..

**********

تمدت في فراشي وظل عقلي يفكر في هذا الحوار الغريب، لماذا سلمى دائما غامضة؟ ليست وحدها بل هذا المكان وكل من فيه غامضون.
وبدأت الأفكار تتداعى في عقلي والمشاهد تتداخل، فأغمضت عيني لعل رأسي تتوقف عن تخبطها.
وراودتني أحلام كثيرة وكوابيس مخيفة، ومشاهد لم أفهمها، استيقظت وأنا أتصبب عرقا، استعذت بالله من الشيطان الرجيم، وجلست على فراشي أحاول أن أهدئ نفسي.

# *الفصل الثالث*

مرة ثالثة أعود لغرفة الحوار.. ولكن هذه المرة كان المشهد مختلفا.

"ليلى" تقف فوق أحد المقاعد وتهتف بجنون:

- لماذا لا يسمعني أحد؟! أيها البؤساء الملعونون البعيدون عن الحياة، هل تظنون أنكم على قيدها؟ أنتم أموات.. أموات لا روح فيكم أو نبض. تكرهونني لأنني الأصدق، لا أخدع نفسي مثلكم، لا أبحث لها عن جحور لتختبئ فيها. لا أهينها بأحلام لا تتحقق، ولا أعلقها بقلوب لا تشعر، ولا أمنحها وعود زائفة بالحياة....

كانت تتكلم بصوت عالٍ وبدون توقف، وبنظرة قاسية تطلقها نحو الجميع.

كنا نقف جميعا أمامها، المريضات والممرضات ونائلة وطبيبة أخرى ومدير المشفى!

كلنا ننظر إليها وهي تلقي خطبتها الطويلة، كان صوتها يختنق لحظة ثم يعود في الانطلاق. نظرت حولي ولم أفهم لماذا يتركونها تصرخ هكذا دون محاولة تهدئتها! هل يستمتعون بهذا المشهد؟ هل هذا جزء من العلاج؟ !

لا أعرف لِمَ شعرت بالأسى عليها! كنت أظن أنني لا أحبها، فهي من سبتني واسمتني بالبلهاء، لكن ما تعانيه الآن ويظهر في صوتها برغم عنفه جعلني لا أشعر نحوها إلا بالشفقة.

وفجأة ودون توقع، اندفعت ليلى راكضة فوق المقاعد الأخرى حتى وصلت إلى النافذة الكبيرة الموجودة في جانب الغرفة، وألقت بنفسها نحوها.

لا أعرف كيف استطاعت تلك الممرضة أن تصل إليها في الوقت المناسب وتجذبها للأسفل فيسقطا معا..

لكن ليلى لم تهدأ برغم تلك السقطة المفاجأة، فأخذت تلكم وتركل الممرضة لتفلت منها وتعيد الكرة. فهرعتا ممرضتان ومعهما مدير المشفى نحوهما وأمسكوا ب ليلى ورفعوها عن الأرض وحملوها إلى الخارج وهي تقاومهم بعنف..

وفجأة شعرت بضيق في صدري وتسربت أنفاسي مني فزاد اختناقي وسقطت أرضا في اغمائه.

وحين استيقظت وجدت نفسي مقيدة على طاولة في غرفة تشبه غرفة العمليات! حاولت التملص من القيود، ولكنها كانت تضيق أكثر كلما حاولت، فاستسلمت في النهاية وانتظرت ما يفعلونه بي في يأس.

بعد قليل دخلت نائلة وتبعتها احدى الممرضات ووقفوا بجانبي.

- حالة الاغماء التي أصابتك ستضطرنا للانتقال إلى المرحلة الثانية من العلاج، لا نريد أن نفقدك عزيزتي.

قالت هذا بلطف مريب!

- لماذا تقيدونني هكذا؟! وما هي المرحلة الثانية؟
- سنضطر لعمل جلسة كهرباء خفيفة، لتعيد لكِ اتزانك وتساعدك على الاسترخاء ليومين. صدقيني تحتاجين هذين اليومين بشدة .

نظرت بهلع إليها!

- كهرباء!! لا لا أريد، أخرجوني من هنا.

وأخذت أضرب بقدمي وأحاول تحرير يدي، فلم يزيدني هذا إلا ألما.

- اهدأي، هذا لمصلحتك.

فهتفت بحنق:

- هذا إجرام.. لو أردتم تهدئتي فلتحقنوني بمخدر أفضل، لا أريد كهرباء .
- المخدر لن يوقف أفكارك أو ذكرياتك. عقلك يحتاج إلى راحة تامة. ثقي بي.

قالت هذا ثم أشارت للممرضة فاتجهت نحو جهاز الصدمات واعطتها الطوق المتصل به، وبدأوا في صعقي....

لا أستطيع أن أصف ما شعرت به في تلك الثواني، بل تلك السنوات.. كل ثانية تمر في عالمكم كانت تمر عليَ سنوات في عقلي.. وكأنني هويت في فجوة زمنية وعبرت منها إلى الجحيم.

ألم.. ألم.. ألم.. كل ما شعرت به هو الألم.. ثم هدأ كل شيء

ولا أتذكر ما حدث بعد هذا، ضباب وظلام وصمت.. هذا كل ما أتذكره.

لا أعرف متى استعدت نفسي من البئر العميق الذي سقطت فيه، ولكني كنت أشعر بالهدوء .

لم أقابل أحدا وكانوا يعطونني طعامي في غرفتي، ولا يكلمونني إلا كلمات قليلة؛ هذا طعامك.. هذا دوائك.. هل تريدين الحمام؟ هل أغلق لكِ النافذة؟

فقط هذه الكلمات ثم يخرجون.
لا أعرف كم مر من أيام، ولكنني بدأت أستعيد نشاطي وحيويتي، والألم بقدمي لم أعد أشعر به واستطعت السير عليها ببساطة عن ذي قبل. كل ما فكرت فيه في تلك اللحظة هو
"لقد حان وقت الهرب".

*********

حين جلسنا في غرفة الحوار، كان يهمني أن أرى اثنين، سلمى، وغيداء. وعزمت على أن أقنع سلمى بالهرب معنا وأن أتأكد من غيداء أن خطتها محكمة، وأن أعرف منها التفاصيل كاملة.
لهذا كتبت ورقتين أطلب منهما أن يأتيا إلى غرفتي مساء وحددت الساعة التاسعة، وأخفيتهما في يدي، وانتظرت حتى أجد الفرصة لأعطيهما لغيداء وسلمى.
هذه المرة كان الحوار يدور بشكل مختلف، كان يبدو كجلسة بين أصدقاء، نائلة كانت تحكي موقفا مضحكا تعرضت له بسيارتها هذا الصباح حيث اصطدمت بسلة قمامة ضخمة بقرب المشفى وتناثرت محتوياتها على زجاج سيارتها مما أصابها بالغثيان فتقيأت داخل سيارتها، فأصبحت القذارة بالداخل والخارج مما جعلها تفتح باب سيارتها وتنطلق راكضة منها حتى وصلت إلى المشفى. كانت تحكي وهي تضحك ويشاركونها الضحك وكأنه موقف فكاهي مع أنني لم أره كذلك. ولكن ربما لأن نائلة تحكيه بأسلوب هزلي أو لأن المستمعات مختلات لا يفهمن حقيقة الموقف وبشاعته.
وقعت عيني على سلمى فلاحظتها تضحك! كانت رؤيتها وهي تضحك شيء رائع، ولم أعد أرى في تلك القاعة ووسط كل هذه الضحكات سوى ضحكتها، كنت سعيدة أنها تعيش لحظات تنسى فيها معاناتها وتضحك. فابتسمت لضحكتها، ثم دون أن أشعر شاركتهن الضحك..
وانتبهت على صوت احدى السيدات:
- أريد أن أحكي شيئا حدث لي ذات يوم.
فسمحت لها نائلة أن تتحدث.

- كنت عائدة من عملي ذات يوم، وسرت حتى موقف الباص، فرأيت طفلا صغيرا يقترب مني ويرفع يده يطلب مساعدة، كان عمره تقريبا سبع سنوات،

فتحت حقيبتي لأخرج منها جنيها لأعطيه له، وفي لمح البصر فوجئت به يخطف حقيبتي ويطير بها، وقفت مذهولة للحظات، ثم ركضت خلفه وأنا أشير نحوه صارخة .

كان الناس ينظرون ولا يتحرك أحد لمساعدتي أو لإيقاف هذا اللص! ركضت خلفه حتى وصلت إلى طريق مقفر ليس به أحد. أكوام من القمامة وكلاب ضالة وقطط هزيلة وأطفال مشردون. شعرت بالخوف على الرغم من أن الشمس لازالت مشرقة. ولكن ظلال الخوف كانت تحيط بي، فناديت على الطفل السارق أن يظهر، وقلت له أعلم أنه هنا ولن أبرح مكاني حتى يخرج وإن استغرق هذا عمري كله. برغم خوفي إلا أنني كنت عازمة على تنفيذ تهديدي

لن أسمح لطفل حقير أن يسلبني ما أملك. كنت أسمع أنفاسه المضطربة في صدره، وأعلم أنه مختبئ خلف تلك التلال من القاذورات. فانتظرت خروجه..

صمتت المرأة وطال صمتها وكأنها أنهت قصتها!

فمالت نائلة إلى الأمام قليلا وقالت لها بصوت هادئ ومنخفض:

- ما الذي حدث بعد ذلك يا رحاب؟

ثبتت رحاب عينيها في عين نائلة وقالت بتحدي:

- خرج من مكمنه ومد يده بالحقيبة وطلب مني أن أسامحه، ولكني لم أفعل.
- ماذا فعلتي؟
- عاقبته
- كيف؟
- وضعت يدي على عنقه وقبضت عليها بكل قوتي.
- قتلته؟
- لا، بل عاقبته، هو الذي استسلم وقرر أن يتوقف عن الحياة. بالتأكيد شعر بخطئه فاستسلم.

قالت هذا ولانت نظرتها وأراحت ظهرها على المقعد وكأنها قالت ما تريد واكتفت.

كان هذا بالنسبة لي صدمة ألجمت لساني وتفكيري! لم أتخيل أبدا أن من هؤلاء النسوة قاتلات!!

ظللت أنظر نحوها للحظات ثم نقلت بصري نحو الباقيات فوجدتهن صامتات وكأن ما قالته شيء معتاد! ونظرت نحو نائلة، العاقلة الوحيدة في هذه الغرفة، فرأيتها تبتسم في راحة!

ما الذي يحدث هنا؟! ما هذا الجنون الذي يحيط بي؟! من هؤلاء البشر؟! وكيف يكونون في الأساس بشر؟!

أريد أن أخرج من هنا، لم أعد أحتمل، لا أريد أن أفقد عقلي مثلهن.

كانت هذه العبارة تتردد داخلي بقوة، ويرتج معها جسدي دون توقف، حتى أن نائلة التفتت لي وسألتني بقلق:

- ما بكِ؟

فرمقتها بحدة وصرخت فيها:

- ما بي؟! هل أنت مخبولة؟ ألم تسمعي ما قالته؟

فأجابت ببساطة:

- نعم سمعته. وسعيدة أنني سمعته.
- كيف؟!
- هذه أول مرة تفتح لنا رحاب قلبها وتحكي فيها قصتها، هذه خطوة جيدة جدا.
- هل هي هنا بسبب هذا؟
- لا نعرف بالضبط هل هذه الحادثة هي السبب أم أن هناك ما حدث قبلها وجعلها تفعل ما فعلت.
- نعم، ليس منطقيا أن يكون هذا رد فعلها لمجرد حادثة سرقة فعلها طفل. بالتأكيد هي لم تكن متزنة قبلها.
- صحيح، المواقف العارضة مهما كانت قاسية لا تشكلنا، ولكنها تظهر الخلل الكامن. كقنبلة تنتظر الانفجار فيكون هذا الموقف هو نازع الفتيل ليس إلا.
- منذ متى وهي هنا؟
- منذ شهور، ولكنها معظم الوقت ليست معنا، بل في عالمها الخاص، هل لاحظتي أننا نتحدث عنها ولا تهتم بما نقول؟

انتبهت لهذا فعلا! فهي تنظر إلينا، ولكن يبدو أنها لا تسمعنا!

- لهذا ابتسمتِ حين روت جريمتها؟
- نعم، فهذه أول مرة تتحدث من تلقاء نفسها، وتذكر أيضا ما فعلته.
- وهل حقا قتلت هذا الطفل أم تتوهم؟

صمتت نائلة قليلا وكأنها مترددة في الإجابة، ثم حسمت أمرها وقالت:

- في الحقيقة هي قتلت الطفل فعلا، ولكن ليس بالسياق الذي روته، فالطفل المقتول في الحقيقة كان..

ثم مالت نحوي وهمست في أذني:

- كان ابنها.

لا تتخيلوا ما شعرت به حين قالت هذا! وكأنني أجلس على شاطئ بحر ارتفعت أمواجه فجأة فأغرقتني وسحبتني داخلها. شعرت بالاختناق، فنهضت مسرعة وركضت نحو الباب أريد الخروج، فمنعتني احدى الممرضات، فالتفت' إلى نائلة استجير بها لتسمح لي بالعودة إلى غرفتي، ففعلت وأشارت للممرضة لتتركني أذهب. ولكني شعرت بها تتبعني من بعيد حتى وصلت إلى غرفتي.
أغلقت الباب خلفي ورقدت على الفراش وأنا لا أعرف بماذا أشعر، هل بالخوف، أم بالغضب، أم بالشفقة.

كنت في حالة صدمة لا شك، ولكن لم أفهم لماذا الصدمة! فهن مجنونات لا شك، وطبيعي أن يفعل المجانين أشياء غير منطقية، فهل أشفق على الطفل وهذا سبب ما أعانيه؟ لست بهذه الهشاشة لأنهار لمجرد أن أسمع جريمة كهذه، فليست هذه هي أول مرة أسمع عن أم تقتل طفلها، ولكن ربما السبب هو أنني لم أتقابل وجها لوجه مع أم قاتلة! وأن أعيش وسط مجموعة مجانين!

لا بد أن أخرج من هنا قبل أن أصبح مثلهن.

وحينها تذكرت الورقتين وأنني نسيت أن أعطيهما لسلمى وغيداء.

وعزمت أن أنزل في موعد الغداء لأبحث عنهما، ولكنني أحتاج لبعض الراحة، أشعر بالتعب، حقا أنني متعبة، خائفة، حزينة.

أغلقت عيني وأنا أرجو أن يأتيني النوم سريعا، فلم أعد أحتمل. ولكن عقلي قفز فجأة إلى ابنتي، واجتاحني شوق عاصف نحوها، وتمنيت أن أراها أو أن أسمع صوتها، وتخيلت ابتسامتها الجميلة ونظرتها الهادئة. ومرت في ذهني ذكريات طفولتها ومرحها وشقاوتها ثم.. بدأت الذكريات تسير نحو الظلمة! مشاهد متداخله

ومضات خاطفة من حزن، وبكاء، وصراخ، وصمت.. وشعرت أنني أنسحب من جسدي، وأفكاري أصبحت أكثر تشويشا. وكأنني أسقط في بئر سحيق، مظلم، بارد، أسقط ببطء.. عيناي مفتوحتان وجسدي يرتجف ومشاهد متسارعة تمر وتتشابك، كفلاش الكاميرا، سريعة وخاطفة، تومض في عقلي سريعا ودون توقف بشكل مؤلم ومرهق، فصرخت..

انتبهت على يد دافئة فوق يدي، كانت سلمى.. رأيتها تجلس على حافة الفراش الذي أرقد عليه، يدها على يدي وتنظر لي بحنان ..

- كل هذا سينتهي قريبا.
- كيف عرفتي؟
- أنا أعرف.
- أريد أن أخرج من هنا.
- ليست المشكلة حولك، بل داخلك.
- ليس بي أي خطأ، لم آت هنا للعلاج

صمتت ولم ترد، واكتفت بالربت على يدي. فسارعت بالقول:

-أنوي أن أهرب وأريدك أن تهربي معي.

فابتسمت بهدوء وقالت:

- ولماذا أهرب؟ أنا هنا بإرادتي.

قلت بدهشة:

- لماذا؟! لا أرى بك أي مشكلة.
- بل بي. لن أخرج من هنا حتى يرحلوا.
- من؟!
- هم
- من هم؟!

لم ترد، ولكن في تلك اللحظة رأيت غيداء تدلف إلى غرفتي وتجلس على الحافة الثانية من فراشي، وهي تهمس:

- علينا رسم الخطة اليوم فغدا موعد الاحتفال.
- أخبريني بخطتك وأنا معك، أريد الخروج من هنا في أسرع وقت.

فنظرت بريبة نحو سلمى وهي تسألني:

- هل ستهرب معنا؟
- لا. هي تريد البقاء هنا.

رمقت غيداء سلمى باحتقار وهي تقول:

- جبانة ومجنونة.

نهضت سلمى دون أن ترد على تلك الإهانة واتجهت إلى النافذة ونظرت خارجها وظلت هكذا دون أن تلتفت إلينا، فأمسكت غيداء بيدي وقالت برجاء:

- لا تجعليها تؤثر عليكِ، يجب أن نهرب من هنا، سيقتلوننا إن بقينا. هم مجرمون، يسجنوننا هنا ليتخلصوا منا واحدة واحدة.

اقشعر جسمي من كلامها، فهززت رأسي بالموافقة.

فابتسمت في ارتياح واخبرتني أنها ستأتيني بزي لإحدى الممرضات غدا وسنتقابل هنا في غرفتي ونتحرك معا عند بدء الحفلة وسنهرب ..

كانت الخطة بسيطة، ولكن نسبة نجاحها ليست مرتفعة، خاصة أنني سأتبع غيداء في خطواتها وسأترك لها القيادة وهذا وحده مخيف بالنسبة لي.

أحزنني أن سلمى لن تأتي معنا، ولكنني عزمت على ألا أتركها هنا، وأن أحاول نقلها إلى مشفى أخرى إن أرادت استكمال علاجها.

ولكن غيداء انتزعتني من أفكاري حين أخبرتني أن هناك أخريات سينضممن إلينا، هذا أخافني، فالباقيات مجنونات بالفعل، كيف أسمح لهن بالفرار معي! ما أدراني بردود أفعالهن! ربما تحدث لإحداهن حالة هياج مثلما حدثت ل ليلى من قبل. حاولت الاعتراض، ولكن غيداء أصرت، ولم أر بد من الموافقة. فهي صاحبة الخطة والقيادة. ولكن ما حيرني هو أن سلمى كانت تستمع لهذا كله ولم تعلق بشيء! فقط تنظر من النافذة وكأنها ليست معنا أو تسمعنا. ورمقتها غيداء بنظرة كارهة وهي تخرج! لا أعرف سبب كراهية غيداء لها! هل يمكن أن يكره أحد سلمى؟!

بعد خروج غيداء التفتت سلمى نحوي وأشارت لي بيدها أن أقترب. نهضت من الفراش واقتربت منها.

فمدت يدها وامسكت بيدي لأقترب أكثر..

فاقتربت وأنا أشعر باضطراب لا أفهمه! فأشارت بيدها الثانية نحو النافذة لأنظر منها، فنظرت..

فرأيت ما جعلني أرتجف من رأسي حتى أخمص قدمي.

كانت ابنتي تقف عند بوابة المشفى وتتحدث مع نائلة!

ناديتها بأعلى صوت لدي، ولكنها لم تسمعني، ظللت أنادي وأنادي، ولكنها لم ترفع رأسها لتراني، كانت منهمكة في الحوار مع نائلة، وكنت أعرف أنهما يتحدثان عني وبالتأكيد تخبرها نائلة بأكاذيب عني.

ولكن هل ممكن أن تصدقها ابنتي وهي تعلم بالسبب الحقيقي الذي جعلني أدخل تلك المشفى!

ثم أليس من المفترض أنها جاءت لتسأل عني! فلماذا لم يأتوا بها إليَ؟! وشعرت بروحي تنسحب وأنا أرى ابنتي تخرج من باب المشفى دون أن تراني. ظللت أنادي عليها وأصرخ وأصرخ، حتى اندفعت ممرضتان عبر غرفتي وأمسكتا بي.

حاولت التملص منهما، ولكنهما أحكمتا قبضتهما حولي. ولمحت احداهما تثقب ذراعي بحقنة وغامت الدنيا في عيني..

حين استيقظت كرهت ضعفي واستسلامي لهم بهذا الشكل. يخدرونني لأهدأ والنار بداخلي لا تهدأ.

لو يقتلونني لكان أفضل لي من هذا العذاب الذي أشعر به.

# الفصل الرابع

كانت الحركة غير عادية في هذا الصباح، عاملات النظافة يعملن بهمة والممرضات يتجولن للإشراف على كل شيء بدقة، والأطباء يمرون ويلقون ملاحظاتهم، وحزرت أن شخصيات مهمة ستأتي لحضور حفل رأس السنة، لهذا كان الكل يعمل بلا كلل. ذهبت إلى قاعة الإفطار، ولمحت غيداء تجلس على احدى الطاولات، فأخذت صينية افطاري وذهبت وجلست معها. لم ترفع رأسها نحوي واستمرت في الأكل، وشرعت أنا أيضا آكل وأنا أفكر، هل تتجاهلني عن عمد حتى لا يفهم أحد ما ندبره، أم أنها جائعة جدا.

انتظرت أن تبدأ هي بالكلام وتناولت طعامي ببطء وأنا اتجول بعيني بين الموجودات. كان الصمت هو سيد ذلك الوقت. وكأن الجميع أخذن أوامر صارمة بعدم التحدث! حتى تلك الهمهمات الخافتة لم أسمعها!

انهيت طعامي ونظرت إلى غيداء أحثها أن تتكلم، ولكنها استمرت في رشف الماء ببطء بعد أن أنهت طعامها كله.

- غيداء، ما بكِ اليوم؟

وضعت الكوب على الطاولة ورمقتني بنظرة حادة:

- ما بكِ أنتِ؟! لماذا جلستِ معي؟ هل تريدينهم أن يشكوا بنا؟
- ولماذا يفعلون؟ طبيعي أن نجلس معا، هذا ليس معناه أننا ندبر شيئا.
- هم اليوم يراقبون كل شيء، علينا أن نتعامل بحذر شديد.

قالت هذا بهمس وكأنه فحيح أفعى!

- إذا كانوا بهذا الحذر هذا اليوم، فلماذا اخترتهِ ليكون هو يوم فرارنا؟!

فوجئت بها تضع اصبعها على فمها، وتطلق صوت الفحيح مرة أخرى:

- هشش، لا تتفوهي بتلك الكلمة هنا، قد يستطيعون قراءة شفاهك. أنتِ أغبى مما توقعت.

شعرت بالغضب حين وصفتني بالغبية، ولكن أمسكت نفسي حتى لا أصفعها، فتهوري الآن سيقضي على أي أمل لي في الخروج من هذا القبر.

قلت بهدوء مصطنع:

- حسنا، ماذا علي أن أفعل؟
- تصرفي كعادتك، لن نفعل شيئا حتى يبدأ الحفل مساءً.
- حسنا.

قلت هذا ونهضت، وسرت نحو باب الخروج من القاعة، فلمحت سلمى تقترب مني وعلى ملامحها بعض الاضطراب. لحقت بي عند الباب فخرجنا معا وأنا أنظر إليها متسائلة. فهذه المرة الأولى التي أراها بتلك الحالة!

ولكنها لم تنبس بكلمة، فسألتها:

- ما بكِ؟

هزت رأسها في قلق وهي تجيب:

- لا شيء، أريد فقط السير معكِ قليلا.
- هل نذهب إلى الحديقة أم إلى غرفتي؟
- إلى الحديقة، أريد أن أرى الشمس معكِ.

شعرت ببهجة مفاجئة، فسرت معها بحماس نحو الحديقة.

كانت الشمس مشرقة والهواء خفيف، جلسنا بجوار شجرة تهتز أوراقها بشكل حالم مصدرة صوت حفيف هامس. جلسنا في صمت نستمتع بشعور الراحة، هذا أنسب وصف له، راحة من كل شيء حتى من الأفكار، لا أعرف كم مكثنا على تلك الحالة، ولكنني كنت لا أريد لذلك الوقت ان ينقضي، وجود سلمى يمنحني دفئا لا أجده مع أي وجود آخر، وكأنها أنا في أفضل حالاتي، أو في حالتي التي كنت أتمناها دوما.

- فريدة، لا أريدك أن تهربي، لا تنصتي لغيداء أو لأحد آخر.

كانت كلمات سلمى مفاجأة لي لأنني لم أفهمها!

- ليس هذا مكاني، أنا لست مريضة، جئت هنا لأكتب رواية عن مريضات الاكتئاب، لم أكن أعرف أن الخروج من هنا يستلزم كل هذه المعاناة. أخطأت بقدومي إلى هنا، ويجب أن أصحح خطأي.
- الخطأ الوحيد الذي يجب أن تصححيه هو أنكِ لا تفهمين نفسكِ، تتركينها وحيدة وحزينة.

- هل تظنين حقا أنني مريضة؟ ألا تصدقينني؟ قلت لكِ جئت إلى هنا في مهمة عمل وبإرادتي، لست مجنونة مثلك أرى أشخاص غير حقيقيين، ولست بضعفك حتى أستسلم لهؤلاء المجرمين الذين يخدعوننا باسم العلاج ولا أعرف ماذا يدبرون لنا في الخفاء. إن كنت تتجاهلين هذا فهذا شأنك، لكن لا تظنين أنني مثلك.

قلت كل هذا بنبرة حادة وصوت يرتفع شيئا فشيئا، وشعرت بموجة غضب هائلة، جزء مني يحاول تهدئتي ويقول لي لا تصرخي في وجهها، فهذه سلمى، واحتك الهادئة وركنك الدافئ، وجزء آخر يأمرني أن أصرخ وأهاجم وأقاوم لأمنع تأثيرها علي. لن يمنعني أحد من الخروج من هنا والعودة إلى حياتي وإلى ابنتي.

انتهيت من كلامي أو صراخي بمعنى أدق وأنا ألهث، كانت نظراتي مثبتة في عيني سلمى، كانت نظرات تحدٍ وغضب، وهي كانت تنظر لي بهدوء، هدوء اشبه بالدوامة، يسحبني داخله ويمتص ثورتي شيئا فشيئا، وشعرت أني أخوض معركة غير مفهومة، ولكنها مؤلمة، ألم غامض، موجع وموحش.

ومدت سلمى يدها تريد أن تلمس يدي، فنهضت فزعة، وركضت أريد العودة لغرفتي، أريد الاختباء منها ومني ومن كل ما يؤذيني.

وقبل أن أصل إلى غرفتي اصطدمت بليلى، تلك المرأة الغاضبة على الدوام التي أرادت أن تلقي بنفسها من النافذة من قبل. كان اصطدامي بها عنيفا لدرجة أنني وقعت على الأرض وشعرت بصداع شديد. وقبل أن أنهض لمحتها تركض باتجاه سلمى، وشعرت أنها ستهاجمها، فقفزت على قدمي وانطلقت ورائها. وبالفعل رأيتها تمسك بعنق سلمى وتخنقها بعنف، فصرخت استغيث لنجدتها وأنا أحاول الوصول إليها لأنقذها. كان من الواضح أن ليلى تفوق سلمى في القوة، لهذا كانت قواها تخور سريعا، وفي اللحظة التي وصلت فيها إليهما، سقطت سلمى أرضا..

نظرت مذهولة إليها.. ناديتها وهويت على ركبتي بجوارها وهززتها، ولكنها لم تتحرك....

**********

كتمثال شمع أشعلوا تحته نارا، هكذا كنت أنا أذوب ببطء، أنسحب داخل بئر مظلم لا إحساس فيه ولا شعور، عدم يحتويني وطبقات من الفراغ تتراكم فوق رأسي وداخلي. غابت الشمس ولم يظهر القمر. تهاوت الأرض ولم تسقط السماء ولم ينتهِ كل شيء بعد.

ها أنا للمرة الألف في غرفتي، بلا معنى وبلا هدف وبلا إحساس. ماتت سلمى ومت معها..

لا أعرف كيف وصلت إلى غرفتي، ولكن ما كنت أريد أن أفهمه لماذا جاءت تلك الممرضة العجيبة لتخبرني أنهم سيبدؤون الحفل بعد دقائق وعلي أن أنزل إلى قاعة الاحتفال!

كيف يستمرون في احتفالهم بعد تلك الجريمة؟ ألا قيمة لأرواحنا عندهم؟ ألم تكن سلمى تستحق ولو بعض الحزن!

سلمى والحزن.. وكأنني أردد كلمتين غريبتين عني! ما هذا الفراغ الذي أشعر به؟ هل هذه أعراض صدمة؟!

دخلت غيداء وهي تحمل في يدها زي ممرضة وطلبت مني أن ارتديه واتبعها، كانت هي الأخرى ترتدي زي مماثل. اخذته وارتديته وقبل أن أقول شيئا فوجئت ب ليلى القاتلة تدخل غرفتي وهي ترتدي نفس الزي!

صرخت مستنكره:

- ما هذا؟ هل ستهرب معنا؟!
- نعم
- مستحيل! لقد قتلت سلمى أمامي، مستحيل أن أهرب مع تلك الشيطانة.
- سلمى كانت ستكشفنا، لا تريد لنا أن نخرج من هنا، كان لابد من التخلص منها.
- مم.. ماذا تقولين؟!
- نعم يا فريدة، أنا من أمرت ليلى بأن تقتل سلمى. وإن لم تلتزمي الصمت سنقتلك أنتِ أيضا.

كان هذا أكثر مما أستطيع احتماله! ودفعتني ليلى لأسير معهما، وسرت أو زحفت، لا أتذكر سوى أنني كنت أقف مع أخريات؛ غيداء وليلى ورحاب وتلك الفتاة

الصغيرة التي لا أفهم كيف هي نزيلة هنا وهي بهذه السن؟! كنت أسير معهن ولا أعرف إلى أين! ما استطاع عقلي أن يتمسك به هو أننا الآن نحاول الهرب من ذلك السجن. قررت أن أؤجل كل مشاعري وأفكاري إلى حين الوصول إلى خارج تلك الأسوار، وبعدها سأبلغ عن ليلى وعن غيداء وعن المشفى، سأسجنهم جميعا، سأنتقم لسلمى ولنفسي.

سلمى.. أشعر بألم رهيب بمجرد أن يتردد أسمها في مخيلتي.

ولم أنسَ أن آخذ معي مفتاح بيتي، هذا هو الشيء الوحيد الذي أخذته من أشيائي وتركت الباقي في الغرفة.

سرنا كموكب جنائزي، تتقدمنا غيداء، ثم الفتاة الصغيرة ومن بعدها أنا ثم رحاب وليلى. كنا نتسلل بحذر ولكن بلا خوف! لم ألمح أي توتر على حركاتهم ولا أنا. عبرنا البهو الطويل وبدأنا في النزول على السلم، وأشارت لنا غيداء بأن نشد ظهورنا ونسير بثقة لنعبر من خلال الممرضات والعاملين الذين يسيرون جيئة وذهابا أسفل السلم في البهو الكبير. فعلنا ما أمرت ما عدا الفتاة الصغيرة حيث ظلت مطأطأة الرأس مستمرة وحدها في موكبها الجنائزي. لم نعرها التفاتا ووصلنا أسفل الدرج، اتجهت غيداء يمينا فتتبعنا خطاها، ثم يسارا ففعلنا بالمثل. فلمحت بابا مكتوبا عليه المطبخ، وأشارت غيداء نحوه فاتجهنا إليه. وبمجرد دخولنا رأيت الطباخين ينظرون نحونا بدهشة! فسارعت غيداء من خطواتها، فأسرعنا خلفها حتى وصلت إلى باب آخر خرجت منه وخرجنا مثلها. كانت الباحة الخلفية للمشفى تتلألأ أشجارها بأنوار مصابيح صغيرة تم تزيينها بها، لم أر أحد فالجميع متواجدون في قاعة الاحتفالات داخل المشفى ويتوافدون إليها من بوابتها الرئيسية لهذا كانت الفرصة مواتية جدا لتسلق السور والقفز خارجه والانطلاق نحو الحرية. لم أكن أتوقع أن يكون الهروب بتلك السهولة. وهذه السهولة هي التي جعلتني أقلق وأشعر بأنه تنتظرنا مفاجأة ما. فمشاهد الهروب دائما ما تكون محملة بالمفاجآت. ولكنني لم أستسلم لهذا القلق، وتسلقت السور برشاقة يحسدني عليها سبايدر مان.

وعندما لمست قدمي الأرض على الجانب الآخر، جانب الحرية، حيث أعود مرة أخرى مالكة أمري والمتحكمة في مصيري. كان احساسي لا يوصف وأنا أقف في الشارع خارج المشفى، حيث الهواء والأشجار والطيور وكل شيء حر خلقه الله. لا أحد يستحق أن يسلب منه هذا الإحساس إلا من يحاول أن يسلبه من الآخرين. أخذتني اللحظة ولم أنتبه إلا وغيداء تجذبني من ذراعي لأركض معهن بعيدا قبل

أن يرانا أحد. ركضت بكل قوة، بكل إصرار، بكل شغف. حتى وصلنا على أول الطريق، وأشارت ليلى لإحدى السيارات فتوقفت، وأخبرت قائدها أننا ذاهبات لحالة طارئة فوافق أن يوصلنا. وركبنا معه وسألنا عن العنوان، فسارعت بإخباره بعنواني. وعند وصولنا فوجئت بهن يسرن معي في اتجاه بيتي! توقفت واستدرت لأواجههن:

- أرى أن نفترق هنا.

نظرن لي ولم تنطق منهن إلا غيداء:

- عفوا عزيزتي، ولكن لا يصح أن نفترق الآن. نحتاج ولو ليلة واحدة نرتاح فيها ونفكر في خطوتنا القادمة.

قلت بدهشة:

- أليس لكن بيوت تذهبن إليها؟ أليس لكن حياة؟

نظرن لبعضهن ثم لي ثم سرن نحو بيتي وكأن ليس لي رأي أو حق الاعتراض!

ثم عادت غيداء وسحبتني من يدي وهي تقول بمودة:

- ليلة واحدة عزيزتي حتى ندبر أمرنا لن نزعجك.
- ابنتي لن يعجبها وجودكن.
- ابنتك ليست في البيت يا عزيزتي.

نظرت إليها بدهشة!

كيف علمت أنني أرسلتها إلى بيت والدها قبل دخولي المشفى! هل لا زالت تقرأ أفكاري!

لم أجد بد من أن أسمح لهن بالمبيت معي ليوم واحد. وأكدت عليهن أنه سيكون يوم واحد فقط، وبعده عليهن أن يبحثن عن مكان آخر.

صعدنا وأخرجت المفتاح من جيبي ووضعته في قفل الباب، ولكنه لم يتحرك! حاولت مرارا، ولكن المفتاح أبى أن يفتح الباب. وقفت حائرة أنظر إلى الباب والمفتاح فأخذت غيداء المفتاح من يدي وحاولت هي فتح الباب، ولكن أيضا لم تستطع. وفجأة اندفعت ليلى نحو الباب تدفعه وتركله وهي في حالة غضب مخيفة. وقبل أن أحاول امساكها لتتوقف عن هذا الجنون رأيت جارتي تفتح بابها وتنظر نحوي في دهشة وخوف وتسالني:

- ماذا تفعلين؟!

أجبتها بدهشة:

- ماذا أفعل؟! هذا بيتي أنسيتِ؟!
- لا لم يعد كذلك، زوجك باعه.
- ماذا تقولين؟! باع ماذا؟! هذه شقتي.

فقالت بخوف وهي ترجع للوراء خطوة وتغلق الباب:

- لا أعرف، لا أعرف.

وقفت مشدوهة، لم أفهم معنى هذا. فدققت عليها بابها، ولكنها لم تفتح، طرقت وطرقت، ولكنها لم تفتح.

فهرعت راكضة السلم وخرجت إلى الشارع وأنا أشير إلى أي سيارة تمر بي، أريد الذهاب إلى بيت زوجي السابق لأفهم منه ما الذي فعله بشقتي. ووقفت بالفعل سيارة لي، زي الممرضة الذي ألبسه سهل علي أن أتنقل دون أن أدفع أي نقود. ظن السائق أنني في عجلة من أمري لأنقذ أحد المرضى.

وصلت إلى العنوان الذي يسكن فيه زوجي السابق، ركضت حتى وصلت إلى باب شقته، وقفت ألهث، ثم رفعت يدي وضربت جرس الباب بشكل متواصل، وأخيرا رأيته يقف أمامي مندهشا!

- أهلا فريدة، كيف خرجتِ؟!
- خرجت من أين؟ ما الذي أخبرتك به يارا؟
- يارا؟!
- أين هي؟
- من؟!
- يارا ابنتي.

ظهرت الحيرة على وجهه وكأنه لا يدري بماذا يجيب، فاندفعت صارخة:

- أين ابنتي.

وقبل أن يجيب دفعته بكلتا يدي وانطلقت إلى الداخل وأنا أهتف باسم ابنتي وافتح كل باب يقابلني بحثا عنها دون جدوى..

فعدت إلى حيث كان جالسا أسأله بعصبية: أين هي؟!

لم أفهم نظرته لي ولكنه تنهد وهو ينهض ويقول ببطء:

- ابنتنا ماتت يا فريدة.

أردت أن أردد ما قال بتعجب واستنكار، أردت أن أضحك من حماقة ما قال، أردت أن اتهمه بالكذب، وأن أصفعه لأنه تجرأ أن يقول هذا القول البشع، أردت أن أفعل وأقول الكثير ولكن الزحام الذي ملأ رأسي وهذا الضجيج من الأفكار أعاقني عن الحركة، وبعد جهد استطعت أن أستخلص عبارة مبحوحة الصوت ممزقة الحروف:

- أنت تكذب
- لا، لا أكذب، بل أنتِ من تكذبين على نفسك، لهذا كنتِ في المشفى.
- كنت هناك لأعد لكتابي الجديد، يارا هي من شجعتني على ذلك.
- كنتِ هناك لأنكِ لم تتحملي موتها، عقلك اختلق هذه القصة ليهرب من تلك الحقيقة.
- هل جننت؟!
- لا، أحاول أن أعيد إليكِ عقلك.
- عقلي؟!
- نعم، عقلك الذي فقدتهِ يوم أن ماتت يارا

صرخت:

- لا تكرر هذا.
- هذه هي الحقيقة
- أي حقيقة؟ أنت تريد أن تفقدني عقلي وأن تسلبني ابنتي.
- لا، أنا وأنتِ فقدناها لأننا لم نهتم بها، انشغلنا بخلافاتنا وانفصلنا وتركناها وحدها ولم يهتم احدنا بتأثير هذا عليها. ذهبت أنا لأبحث عن حياة جديدة لي وغرقتي أنتِ في عملك وطموحك، ولم ينتبه أحدنا أنها أصبحت وحيدة حزينة منعزلة في أهم فترة في حياتها حيث فترة المراهقة واضطراباتها، ولا أعرف كيف ومتى اتخذت هي قرار الانسحاب من الحياة، ظلت في حالة اكتئاب حتى رحلت. لا ألومك وحدك فأنا مشترك معك في هذه الجريمة. حدث لكِ انهيار عصبي، فأودعوكِ في المشفى، ولكن يبدو أن عقلك قرر ألا يقبل هذه النهاية، وينسى تلك اللحظة، وربما لهذا جئتني تسألين عن يارا. تقبلي الحقيقة كما تقبلتها، ابنتنا ماتت يا فريدة ولن تعود.

هل أنا خارج الزمن؟ نعم أشعر أنني خارجه، أتأمل حركة شفاهه، هو يتكلم، يقول شيئا، ولكن عقلي لا يفهمه، كنت على مسافة أميال من صوته فلم يصلني، غمامة تحمل أفكاري وتسقطها حيث لا أدري، بعيدا عن هنا كنت أنا ‘أراني هناك، وأرى دخان أسود يزحف ليحجب كل ضوء موجود، حتى أنني لم أعد أراه كما كنت لا أسمعه! هل لا زال هنا؟!

ظل هذا السؤال يتردد في رأسي، حاولت أن أتحرك لأتأكد، ولكني شعرت بألم لا يطاق في رأسي، امسكت بها وأنا أصرخ، انحنيت على نفسي وجسدي كله يرتجف، أغمضت عيني بشدة وأنا أضغط على رأسي ليتوقف الألم، ولكنه كان يزيد، ويزيد ويزيد، ثم توقف..

وفتحت عيني ورأيت غيداء وليلى ورحاب والفتاة الصغيرة يلتففن حولي وينظرن نحوي نظرات غامضة.

حاولت النهوض فلم أستطع، حاولت التكلم فلم أستطع، ثم بدأت اسمع صوت بدا لي أنني أعرفه، ولكنه كان يأتيني من بعيد، وظل يقترب ويقترب حتى اتضح، كان صوت نائلة..

- ارتاحي يا عزيزتي، لا تحاولي أن تنهضي.

قلت بصوت واهن ضعيف:

- ـ كيف عدت إلى هنا؟!
- اتصل بنا زوجك السابق، لا نعرف كيف هربتِ، ولكن الحمد لله أنكِ عدتِ.
- ماذا قال لكم؟
- قال إنه فوجئ بكِ في بيته، وأنه أخبرك بالحقيقة ولم تقبليها.
- أي حقيقة؟
- ليس الآن، فلنتحدث في وقت آخر.
- كلا أريد أن أعرف.
- عقلك لا يريد أن يعرف، يهرب بكِ كلما حاولنا اخبارك.
- أي حقيقة؟ أخبريني الآن.

قلت هذا بإصرار وأنا بداخلي رجاء بألا تقول شيئا، كنت أريد أن أعرف ولا أعرف في نفس الوقت.

- حقيقة رحيل ابنتك يا عزيزتي.

انطلقت مني صرخة لم أدر من أين خرجت! وشعرت بالضباب يلفني مرة أخرى، ولكنني تشبثت هذه المرة بيد نائلة وكأنني أرجوها ألا تتركني أسقط في ضبابي. أريد أن أبقى هنا، أريد أن اسمع ما تقول وافهمه "يارا رحلت! أي حقيقة هذه؟!"

ربتت على يدي المتشبثة بيدها وابتسمت بلطف، ولكنها لم تتكلم، ففتحت فمي لأرجوها أن تنقذني، فشعرت بيد أخرى تسحب يدي من يدها ثم تهزني بعنف وتصرخ في وجهي:

- لا تستمعي لها، هي تريد أن تتملكك.

كانت الصارخة هي غيداء، ثم تبدلت فجأة وأصبحت ليلى، ثم تحولت إلى رحاب، ومن ورائها لمحت الفتاة الصغيرة تقف خافضة رأسها بانكسار غريب!

كان رأسي يدور وأشعر وكأنني احتضر، وعدت أسقط مرة أخرى في ضبابي الخانق، وسمعت صوت نائلة، تهتف:

- قاومي يا فريدة، لا تستسلمي لهن، كلهن يريدونكِ أن تظلي خاضعة لهن، أؤمريهن أن يرحلن، لا مكان لهن في عقلك، فريدة فقط هي التي يجب أن تبقى، أنتِ وحدك صاحبة تلك الحياة، دافعي عنها، عودي لها، تحمليها مهما قست فهي حياتك أنتِ، وجودك أنتِ، لا تنسحبي منها وتتركيها لهن.

كانت هذه الكلمات تنطلق كالرصاصات في عقلي، تؤلمه وتوجعه وتهده هدا. جزء من عقلي بدأ يفهم ما يدور، وجزء منه يستنكر ما فهمه هذا الجزء، وجزء يقول لي لا تصدقي، فلا حقيقة في كل ما يدور حولك، وجزء يتهاوى في بئر سحيق ولا يقاوم ويحاول أن يسحب كل الأجزاء معه.

وفي تلك اللحظة أردت أن أتلاشى، فلا يعد لي وجود، ما يدور في عقلي أكبر من أن احتمله،

وفجأة شرعن في الكلام، همهمات صارت تعلو وتعلو، كلهن يتحدثن معي في وقت واحد، وأخذت أضرب رأسي ليصمتن جميعا، وأدركت أنهن داخل رأسي، لا وجود لهن إلا داخلي، هذا الكيان البائس يحمل بداخله كل تلك الشخصيات المريضة البائسة، أي عذاب هذا!

توقفوا، اخرجوا، ارحلوا عني أرجوكم..

صرخت وبكيت واهتز جسدي كشجرة نالت أكثر مما تحتمل من الضربات، فأرادت أن تستسلم للفأس ليتوقف ويرحمها فمالت نحوه لتسقط، ولكن في تلك اللحظة خفتت الهمهمات وكأنها تتلاشى حتى بقي صوت واحد فقط وهو صوت نائلة:

- انهم يرحلون يا عزيزتي، ابقي معي، قاربنا على الوصول.
- إلى أين نصل؟
- إلى فريدة.
- لا أريدها، لا تستحق أن تحيا بعد أن تركت ابنتها ترحل.
- بل تستحق مهما اخطئت، يكفي الندم لنبدأ من جديد.
- أي بداية لروح قد ماتت؟
- فريدة لا زالت تحيا، توقفي عن الهرب وستجدينها تنتظر.
- كنت طفلة بائسة، يتم عقابها على أي خطأ وإن لم تفعله، فأصبحت أفعل ما يستحق العقاب حتى لا أشعر بالقهر. ثم أصبحت فتاة الركض، أركض في سباق صنعته لنفسي لأرهقها عدوا، وأمني نفسي بالجائزة في النهاية. طموح كالعقاب أجلد به ذاتي وكل من حولي. كنت أخشى أن يظلمني أحد فأحطت نفسي بسياج من القسوة، فظلمت نفسي وكل من احبني. تركت ابنتي للموت ولم ألحظ وحدتها وحزنها، رحيلها كشف زيفي، لا تستحق فريدة الحياة، انفجرت لشظايا منطلقة في كل اتجاه، كل شظية جزء مني، تصارعوا وتقاتلوا على امتلاكي، وقتلوا سلمى.. الشخصية الوحيدة التي تمنيت أن أكونها. حاولت أن تنقذني، ولكني لم أبذل الجهد الكافي لأنقذها. فرحلت هي الأخرى. لم يبق سوى أشباحي وشياطيني.

يا الله! ساعدني..

بكيت وبكيت، كان البكاء يسيل مني حارقا، وجسدي لا يتوقف عن الارتجاف، أرقد على سرير في غرفة غريبة، وبجواري تجلس نائلة، نظرت إليها برجاء، أريدها أن تساعدني. وفهمت ما أريد، فأمسكت بيدي وقالت بهدوء:

- هذه معركتك يجب أن تخوضيها وحدك، لو انتصرتِ الآن ستعود فريدة أفضل وأقوى مما كانت.

قلت لها برجاء:

- لا أريد فريدة، أريد سلمى فقط. فريدة لا تستحق الحياة، أرجوكِ استبدليني بسلمى، ابنتي كانت تستحق أم مثلها، أنا لا أصلح أن أكون أماً، بل لا أستحق أن أحيا.
- لا يا فريدة، تستحقين، نحن بشر، نخطئ ونصحح أخطائنا، هذا جزء منا، لسنا شخصيات خيالية، ولسنا آلات جامدة ولا إله كامل. لا تحملي نفسك فوق طاقتها، إهمالك لابنتكِ دفعتِ ثمنه وعاقبتِ نفسك بما فيه الكفاية، توقفي الآن عن عقابها، وستعود لكِ فريدة كما تحبي أن تكون.

كان كلامها يخترق كل أفكاري فيخلخل ثباتها فكرة فكرة، ولم أعد قادرة على أن أمسك بفكرة واحدة، كلها تتداعي، كمبنى شاهق تتهاوى أساساته واحدة واحدة.
وأردتها أن تتهاوى، أردت أن أتمسك بهذا القدر من العقل الذي تغذيني به نائلة، كطفل يتعلق بأمه في زحام كبير، كنت أنا أتعلق بكلمات نائلة. وقبل أن أمتلك القدرة على أن أبدأ أول فكرة لي بعيدا عن قيود أوهامي، لمحت ليلى تقف أمامي. ظهرت من العدم، تنظر لي بغضب، الآن أدرك أنها أنا، أنا الغاضبة، الناقمة على كل شيء، الرافضة لكل قرب، المحملة بأطنان من القنابل المعدة للانفجار في أي لحظة، لم تأتِ من العدم ، بل من رفضي لكل الخيبات التي مرت بي، هي صنيعتهم هم وليست صنيعتي، الكل لا يريدها حتى أنا، لأنها لا تهتم بأحد ولا تلتفت لأي مشاعر، هم جعلوها كذلك، ولكنها تنظر لي بغضب، لأني لا أريدها مثلهم، نعم لا أريدها، فالنار لا تمنحنا الدفء وهي بداخلنا، بل تحرقنا، لا أريدها لأنها لا تعرف كيف تحب أو حتى كيف تحزن، وابنتي تستحق أن أحزن من أجلها، تستحق أن أتذكرها، أن أعيدها للوجود ولكن ليس هذا الوجود المزيف الذي اختلقته وجعلها لا زالت تحيا في مخيلتي فقط، بل وجود يملؤني بالحب بالحنين، بالندم، فهكذا استعيدها واستعيد معها إنسانيتي واحساسي بالأمومة، حتى وإن لم تعد هنا، فهي بداخلي، جزء مني، سأستعيده يوما ما، حين نلتقي عند الله.
الله.. كم أنا بعيدة عنه! بعدي عنه جعلني بعيدة عن الجميع حتى عن نفسي..
ركزت عيني في عين ليلى، كانت لا تزال تنظر لي بغضب، تبدو متحفزة لي تريد هزيمتي، هزيمتي تعني وجودها، لهذا كان يجب أن أصمد، مدت يدي لأمسك بيد نائلة أردتها أن تمنحني القوة على مواجهة ليلى، نفسي الغاضبة..

امسكت نائلة يدي بقوة، فهمت ما أريد دون أن أخبرها! صرخت في وجه ليلى:

- اذهبي، لا أريدك، لا وجود لكِ ولن يكون لكِ وجود أبدا.

زادت ملامحها الغاضبة هجمت عليَ تريد قتلي كما قتلت سلمى، ولكني لن أسمح لها، إن لم أستطع انقاذ سلمى، فلابد أن أنقذ فريدة الآن. إن ذهبت فريدة، سيذهب كل شيء، حتى ذكرى يارا ستذهب، وهذا لن أسمح به أبدا. ألقت بنفسها علي، وامسكت بعنقي، ضغطت بقوة وغضب، كانت تصرخ غضبا، وأنا أصرخ ألما.. تعانقت صرخاتنا.. وسمعت صوت نائلة يخترق أمواج الصراخ ويصل إلى أذني، يأمرني ألا أستسلم، ألا أترك فريدة تضيع.

فتركت يد نائلة وامسكت بيد ليلى الملتفة حول عنقي، حاولت نزعها ولكنها كانت أكثر قوة لأنها الأكثر غضبا. ولكني كنت أختنق.. ضغط يدها كان يزهق روحي ببطء، وصراخي لا يتوقف ولا صراخها، وشعرت أن قوتي تخذلني، وبدأت فكرة الاستسلام تبدو أكثر راحة وسلام. ولكن فجأة سمعت صوت نائلة يصرخ في، يذكرني بسلمى، وأن تلك القابضة على عنقي هي قاتلة سلمى وأنني يجب أن أنتقم لها، يجب أن أتخلص من ليلى كما تخلصت هي من سلمى.

كبركان يقوم من غفوته قمت أنا، تحول صراخي إلى هدير مخيف وأنا أنزع يد ليلى من حول عنقي وألقي بها بعيدا، كانت دفعتي لها قوية لدرجة أنني رأيتها تغيب من أمامي وكأنها تسقط في فجوة زمنية تبتلعها ببطء حتى اختفت، وقبل أن أشعر بلذة الانتصار ظهرت غيداء، ثم رحاب، ثم تلك الفتاة الصغيرة، كن حلفا ضدي يريد هزيمتي، علمن أنني استطعت هزيمة واحدة منهن لهذا تكاتفن ضدي، يردن البقاء وأنا أصبحت حاصد الأرواح الذي يسعى إليهن، فسعين هن إليه مجتمعات ليزددن قوة. التفت' إلى نائلة، لتخبرني ماذا أفعل! ولكني لم أجدها! صرخت باسمها، رجوتها أن تعود، ولكنها لم تظهر! اقتربن مني، كان واضحا رغبتهن في قتلي، حتى تلك الصغيرة البائسة كانت تنظر لي بغضب، المرة الأولى التي ترفع فيها رأسها رفعتها لتقتلني! حين نظرت إلى عينيها عرفتها.. هي طفولتي القاسية، كيان صغير تم نزع الحياة منه بكثرة اللوم والتهميش والعقاب. لا أتذكر كم مرة تم عقابي على أشياء تافهة! وكم مرة تم لومي على أشياء لم أفعلها! حتى انطويت وأصبحت مشاعري كرة ثلج تتدحرج ويكبر حجمها وأصبحت خطرا يهدد الجميع.

هجومهن هذه المرة أكبر من أن أقاومه، ماذا تبقى لي من إرادة لأقاومهن؟

كان الضغط شديدا حتى أن أنفاسي أصبحت تتباطأ وتتباعد، الموت أصبح وشيكا، والحياة بكل ما فيها تبتعد. أحتاج طوق نجاة، بحثت في عقلي عن هذا الطوق، فكما صنعتهن بعقلي، فلا بد أنني أستطيع القضاء عليهن بعقلي.

يجب فقط أن أركز، فهن غير حقيقيات. ركزت واستعنت بالله، فشعرت بأمواج غير مفهومة تخرج من داخلي، فتدفعهن بعيدا عني، بعيدا بعيدا .. حتى تلاشين

**********.

وحدي، لا أحد معي، حتى نائلة لم تكن هنا!

نهضت من الفراش بصعوبة شديدة، فالمعركة كانت مرهقة جدا.

سرت نحو باب الغرفة وفتحته، فوجدت نفسي في مواجهة احدى الممرضات، فسألتها بإعياء عن نائلة. فظهرت الحيرة على وجهها وسألتني:

- من؟!
- نائلة، الطبيبة التي تعالجني.
- لا أعرف طبيبة بهذا الاسم، والطبيب الذي يعالجك هو دكتور حسن.
- ماذا؟!

كنت أنظر إليها ببله جعلها تمسك بذراعي وهي تحاول إعادتي إلى غرفتي، فنزعت ذراعي من يدها بعنف. فعادت وامسكت بها وهي تجرني جرا وتنادي على زميلتها لتساعدها. وحملتاني الاثنتان حملا وألقيتا بي على السرير. فوجدت نفسي أبكي وأنا أرجوهما أن يستدعيا نائلة، فأكدتا مرة أخرى أن لا أحد يعرفانه بهذا الاسم. وأنني أعالج تحت اشراف طبيب وليس طبيبة وأنه كان معي منذ ساعتين لأنني كنت أعاني من احدى النوبات .

ثم طلبت احداهما من الأخرى بأن تذهب لتستدعي الطبيب. فذهبت بالفعل وعادت ومعها الطبيب.

حين دخل فوجئت أنه زوجي! أو يحمل ملامح زوجي! جلس بجوار فراشي وهو يسألني بهدوء عن حالي.

كنت أشعر بالحيرة لهذا لم أستطع ان أجيبه مباشرة، صمتُ لحظة أتأمله ثم سألته:

ـ لماذا تشبه زوجي؟!

ابتسم وهو يقول بهدوء:

ـ ربما لأنكِ تشبهين زوجتي.

لم أفهم! وسألته بحيرة:

ـ قالتا أنك طبيبي المعالج، هل هذا صحيح؟

ـ ألا تتذكرين؟

ـ لا.

ـ هذا غريب؟!

ـ لماذا؟

ـ لأنكِ من طلبتِ مني أن أعالجك.

ـ متى حدث هذا؟

ـ حدث يوم أن لجئتِ إلي، رجوتني ألا أتركك لطبيب آخر، وإن كان هذا لا يصح إلا أنني فعلته من أجلك.

ـ ما هذا الذي لا يصح؟

ـ تعجبني أسئلتك هذه، نحن الآن في حوار واقعي لأول مرة منذ فترة طويلة.

انتظرت أن يكمل واكتفيت بنظرتي الحائرة، فأكمل:

ـ لا تعلمين كم انتظرت حتى أجدكِ، أنتِ الآن تضعين قدمكِ على أول السلم نحو الخروج من حزنك.

أظنه كان يريد أن يقول مرضك، ولكنه تراجع وخففها بحزنك.

فاعتدلت في جلستي وكررت عليه السؤال الذي يلح علي بقوة:

ـ لماذا تشبه زوجي السابق؟

رفع حاجبيه بدهشة وسألني:

ـ أجعلتني سابق؟!

هذا السؤال الذي بدى كإجابة، صدمني! فسألته بخوف:

- هل أنت زوجي؟!

أومأ برأسه بهدوء:

- نعم عزيزتي.

سألته ثانية بتردد:

- وهل لا زلنا زوجين؟!

أومأ مرة أخرى مع ابتسامة لطيفة دون أن يتكلم.

لا، لا، هذا كثير..
أين الحقيقة في كل هذا!

مددت يدي لألمس يده وأتأكد أنه حقيقي ويجلس أمامي بجوار الفراش، وبالفعل شعرت به حقيقيا، ولكن لا.. كل الشخصيات التي كانت بداخلي وغير حقيقية كنت أشعر بها حقيقة. يد سلمى الدافئة ويد ليلى القاتلة حول عنقي، ونائلة الداعمة، كلهن كان ملمس أيديهن حقيقيا، فلماذا سيكون هذا حقيقيا! بالتأكيد هو من خيالي أيضا، أنا الآن أجلس وحيده' أحدث شخصية جديدة اختلقها عقلي بعد أن تحررت من شخصياتي المريضة، ولكن لماذا؟!
لماذا اختلق عقلي شخصية زوجي في صورة طبيبي؟!
ولماذا يتخيله عقلي أنه لا زال زوجي ونحن انفصلنا منذ سنوات؟!

هل أشعر نحوه بالذنب كما شعرت نحو ابنتي؟ هل لا زلت أريده زوجا لي وأفتقده؟ أم أشعر بالوحدة ولم أجد غيره لأستحضره لينقذني؟ لماذا؟! لماذا؟!

بحث عقلي عن إجابة لهذا السؤال حتى شعرت بإرهاق شديد، وظمأ أشد، كان حلقي جافا جدا، فقلت

" أريد أن أشرب"

فنهض بهدوء، واتجه نحو ثلاجة صغيرة في نهاية الغرفة وفتحها وأخرج زجاجة ماء صغيرة وسار نحوي واعطاها لي!

أمسكت بالزجاجة وفتحتها ووضعت حافتها على شفتي وبداخلي يقين أنها غير حقيقية وأنني لن أشعر بالماء وسأظل عطشى.

ولكن لدهشتي شعرت بالماء يسري في جوفي! شربت حتى ارتويت، ثم رفعت الزجاجة عن فمي ونظرت نحو زوجي وسألته:

ـ أنت حقيقي، أليس كذلك؟

ـ لِمَ تظنين أنني غير حقيقي؟

ـ لأن كل من كن حولي كن غير حقيقيات.

ـ تقصدين من؟!

ـ سلمى ونائلة وليلى وغيداء والفتاة الصغيرة، وربما رحاب والممرضات ومدير المشفى.

ـ وأين ذهبوا جميعا؟

ـ رحلوا بعد أن استعدت عقلي.

ـ كيف؟

ـ قاومت أوهامي، تمسكت بالحقيقة برغم قسوتها، قررت أن أتحمل ندمي وعقابي ولا أهرب منه.

ـ لماذا تشعرين بالندم؟

تنهدت وعدت بظهري للوراء وأنا أجيبه:

- لأنني تركت الآخرين يشكلون شخصيتي، وعشت بشخصية مصطنعة، زائفة، أنانية، متكبرة، فخضت حربا صنعتها لنفسي وقتلت فيها كل من حاول أن يجعلني أرى زيفي أو يعيد لي براءتي. كنت أعتبره عدو يريدني ضعيفة، فقاومته حتى انتصرت.
- وهل هذا تعتبرينه انتصارا؟
- كنت أظنه كذلك حتى فقدتها.
- من؟!
- ابنتي، النور الوحيد الذي كان يستطيع أن يهديني إلى حقيقتي وينقذني من زيفي. أهداها لي الله وأنا ضللتها وأضعتها.

- كيف؟!
- قتلت نفسها. انتقمت مني لأني أهملتها فحرمتني منها.
- وهل تظنينها بهذه القسوة؟ ثم كيف لنور يهديه الله لكِ فتطفئيه أنتِ؟! هل هذا معقول؟

انتبهت لكلامه! فنظرت إليه بتمعن. ما يقوله ليس سياقا طبيعيا للرد على كلامي أو ما يجب أن يقوله طبيب.

فعادت لي شكوكي بأنه ليس حقيقيا.

يجب أن أتأكد، ولكن كيف؟!
وكأنه شعر بحيرتي، فقال لي:
- لو لديكِ أي سؤال تفضلي. أرى أسئلة كثيرة في عينيك.
- نعم لديَ أسئلة كثيرة، ولكن كيف أعرف أن إجاباتك ستكون حقيقية؟
- هل تقصدين أنني سأكذب عليكِ؟
- بل أقصد: هل أنت حقيقيا؟
- أظن الفترة التي فقدتك فيها هي السبب.
- أي فترة؟
- سأوضح لكِ

مال قليلا نحوي وهو ينظر في عيني مباشرة ويقول:

- بعد أن توليت علاجك، كان كل شيء يسير طبيعيا وكنتِ تتماثلين للشفاء بخطوات حثيثة، لكن فجأة تراجعتِ، وأصبحتِ كأنكِ لا ترينني، ولا تسمعينني، انسحبتِ داخل نفسك، لا أعرف أي معركة كنتِ تخوضينها، ولكن كان واضحا عليكِ أنكِ تخوضين معركة كبيرة، لأن الألم يبدو واضحا عليكِ، تصرخين وتدخلين في حالات إغماء، وتؤذين نفسك، حتى أنكِ ألقيتي بنفسك مرة من أعلى السلم. ولكن كان دائما لديِ أمل أن تعودي من أرض معركتك، وتناديني مرة أخرى كي أساعدك. والحمد لله، اليوم تحققت أمنيتي ووجدتك ترينني وتسمعينني كالسابق. ليتك تتمسكين بهذا الواقع ولا تنسحبي إلى أي معركة جانبية أخرى، دعيني أساعدك، تحتاجين لي، وأنا أحتاج أن تعودي إلينا.

كان يتكلم بتأثر، وكانت كلماته تلامس قلبي وتضغط على عقلي.
وشعرت أنني أفهم ما يقول، فالفترة التي يتحدث عنها هي بالتأكيد تلك الفترة التي احتلتني تلك الشخصيات وعشت صراعا معها.
ولكن يظل هناك بعض الضباب! لهذا بدأت بسؤاله عمن يقصد بكلمة "إلينا"!
وكان جوابه كالصدمة الكهربية بالنسبة لي..

- أنا وابنتنا.
- ابنتنا؟! يارا؟! هل يارا لا تزال على قيد الحياة؟!
- نعم عزيزتي، هي على قيد الحياة وتتعافى والحمد لله.

لا أعرف كيف أصف شعوري تلك اللحظة!

ولم أتوقف لأحاول فهمه، قفزت من مكاني وامسكت ذراعيه برجاء:

- هذا حقيقي أليس كذلك؟ لست أتوهم هذا الحوار، هو حقيقي وأنت حقيقي، وابنتي موجودة، كل هذا حقيقي؟
كانت دموعي تسبق كلماتي ولكني كنت أحاول التماسك وأن أبقى بعقلي وأن يظل مستيقظا حتى أسمع إجابته.
وكانت إجابته هادئة وحنونة كنغمة تسبح في موجة ناعمة من النور..
- نعم، كل ما أقوله لكِ حقيقة، أنا هنا معكِ وابنتنا تتعافى من تلك الحادثة وستعود إلى البيت قريبا إن شاء الله.

ثم نظر نحو يدي فانتبهت أنني قد غرست أظافري في ذراعيه، ولكنه لم يبدي أي شعور بالألم وظل مبتسما في وجهي مطمئنا لقلبي رابتا على عقلي.

- أين هي؟! أريد أن أراها.
- ليس الآن، عليكِ أن تستعيدي كامل قوتك وقدراتك العقلية، يجب أن تراكِ في صورة أفضل من هذه.

أومأت برأسي موافقة، ولكن عدت أسأله بلهفة:

- هناك فجوة في عقلي، أحتاج أن تحكي لي ما حدث من البداية لأفهم ولتكتمل الصورة في ذهني، ما أتذكره الآن هو طلاقنا ثم انتحارها.
- نعم حبيبتي، وسأروي لكِ ما حدث بعد ذلك ولكن لا تقاطعيني حتى أنتهي، اتفقنا؟

أومأت برأسي بلهفة:

- نعم

أخذ نفسا عميقا ثم قال:

- لن أبدأ بأسباب ما وصلنا إليه من شجار دائم وخصام متكرر وفجوة كبيرة نشأت بيننا، لأنني بعد أن راجعت كل ما حدث اكتشفت أننا لم نحاول معا أن نتجاوز هذا كله لأن المشكلة كانت موجودة دائما منذ تعارفنا ولكننا تجاهلناها بدافع الحب. ثم بدأت تفرض وجودها علينا بالتدريج حتى ملأت سماء حياتنا غيوم. ابنتنا هي من دفعت الثمن الكبير، نمت في بيت مليء بالحواجز وحاولت هي باستمرار القفز لتنهي السباق ونصل جميعا لخط النهاية ولكننا خذلناها ووقفنا في المنتصف وقررنا الانفصال فتوقفت معنا وفقدت الرغبة في الوصول إلى أي شيء، لم ننتبه لها، كنا مشغولان بأنفسنا، نتجاهلها كأنها خارج المضمار ولا شأن لها بما يحدث بيننا، ولكنا كنا نسلبها كل شيء دون أن ندري، نسلبها أمانها وإيمانها وحتى احساسها بالحياة. فدخلت دون أن ننتبه لشرنقة من الاكتئاب. تركتُ البيت وظللت على تواصل بسيط بها لم يمكنني أبدا من أن ألاحظ ما تمر به. كنت حزينا ولم ألتفت لحزنها. كنت أنانيا جدا. لهذا لا ألومك على شيء، بل في الحقيقة ألوم نفسي فقط، لأنني لم أحاول أن أنقذك من البداية. كانت تصرفاتك تقول أن بكِ شيئا وأنكِ تحتاجين مساعدة، لا أن أعاندك وأتشاجر معكِ وأنفصل عنكِ. لكن ربما لأنكِ لم تسمحي أبدا بأن أرى ضعفك ولو مرة واحدة. مرة واحدة كانت كفيلة بأن تجعلني ألاحظ معاناتك القديمة والتي ألقت بظلالها على حياتنا.

كان يتكلم ودموعي تنساب في صمت وألم، تلك الغصة في حلقي كانت تعيق أنفاسي، وتلهب روحي، لم أحاول مقاطعته، لأن ما يقوله كان ينساب إلى داخلي وليس إلى أذني.

- ثم حدثت الفاجعة، ذهبتِ في الصباح لتوقظي يارا فلم تتحرك واكتشفتِ أنها ابتلعت علبة مهدئاتك كلها حين رأيتيها فارغة بجوارها. استدعيتِ عربة الاسعاف، وفي المشفى أخبروكِ أن حالتها حرجة جدا، ولا أعرف ما الذي حدث حين علمتِ بهذا، غير أني فوجئت باتصال من المشفى، وجدوا رقم هاتفي مسجل في هاتفك باسم زوجي فاتصلوا بي.

هرعت إلى هناك فعلمت بحالة ابنتي وبحالتك. اخبروني أنكِ انهرتي واضطروا لحقنك بمخدر. كان وقع كل هذا علي صعبا، ولكنني تماسكت من أجلكما. حين انتهى تأثير المخدر، حاولت أن أتكلم معكِ ولكنك رفضتي وطردتني من الغرفة. كانت حالتك صعبة جدا وانهيارك العصبي شديد. تم نقلك إلى مشفى متخصص لعلاجك، ولكنك لم تستجيبي لأي علاج، والعجيب أنكِ لم تسألي عن ابنتنا وكأن عقلك تجاهل بشكل تام ما حدث. ولم أحاول أن أعيد لك تلك الذكرى، فطالما عقلك أنكرها فهو يحمي نفسه منها لأنه لا يحتملها. لهذا فضلت أن أنتظر، ونصحني طبيبك بهذا أيضا. تابعت علاج ابنتي وعلاجك. للأسف ظلت يارا في غيبوبة فترة طويلة، كنت أموت أنا فيها كل يوم من الخوف والحزن، و كنت أردد لنفسي دائما أنني يجب أن أتماسك من أجلكما، ولكن بمرور الوقت بدأت أضعف وأفقد الأمل، أهملت عملي وظللت بالمشفى معظم الوقت، حتى أتى يوم أخبرني الطبيب فيه أنه يوجد استجابة ضعيفة من يارا وربما تستعيد وعيها قريبا.

هذا الخبر أعاد لي الرغبة في الحياة وأعاد لي ثباتي وحفزني على أن أحاول التواصل معكِ مرة أخرى لأساعدك واستعيدك. ولكنكِ رفضتني ثانية، وكنتِ لازلتِ في حالة رفضك لكل ما حدث، تعمدتِ أن تفقدي ذاكرتك، وتعاملتِ مع الجميع بقسوة حتى طبيبك لم تمنحيه الفرصة لأن يساعدك. ولكني صممت أن أصل إليكِ ولا أكرر خطأي السابق، وتحايلت حتى دخلت غرفتك، هجتِ وانفعلتِ وصرختِ في كي أخرج، ولكني صرخت في وجهك باسم يارا، وأخبرتك بأنها في المشفى في غيبوبة، وأنها تحتاجك، تحتاجنا معا. كان هذا هو الحل الأخير الذي رأيته، أن اواجهكِ بما يخفيه عقلك عنكِ لعل مشاعرك تجاهها تعيدك لنفسك ولنا.

نعم أعلم أنه لم يكن تصرفا صائبا لأن حالتك لم تكن تسمح بهذا الضغط خاصة أن يارا لم تتماثل للشفاء بعد، وفكرة أنها في غيبوبة مؤلمة مثل انتحارها تماما. ولكن في الحقيقة أنا كنت أحتاجك بجانبي، كنت أريد أن استعيدك من أجلك ومن أجل يارا، والآن أقر لكِ أنني كنت لا زلت أنانيا وأريد أن استعيدك من أجلي أنا، كنت بالفعل في حالة مذريه، الوحدة تقتلني، والخوف يتلاعب بي، خفت أن أفقد يارا وأنا وحدي، كنت أريدك أن تشاركينني حتى ولو الحزن على فقدها. قد يبدو هذا

مشوشا وغير مفهوما، كيف أن خبر استجابتها الضعيف أعاد لي رغبتي في الحياة، وكيف أنني لازلت أخشى فقدها وأريدك بجانبي لأتحمل هذه الصدمة، وكيف أنني أريد أن أساعدك لتستعيدي نفسك وحياتك!

ولكن هذا التشويش وهذا التموج العجيب في المشاعر والأهداف لم أكن ألتفت إليه، كنت مدفوعا للفعل دون تحديد أسبابه أو تقدير نتائجه، وكانت الكارثة أن عقلك لم يتحمل استعادة هذه الذكرى فسقط تحت ضغط كلماتي وصراخي في وجهك وهياجك فلم يتحمل واستسلم. غبتِ عن الوعي وغابت الشمس معكِ. لا ضوء ولا أمل. أوشكت أن أقتل نفسي لأنني من فعلت بكِ هذا. أنانيتي وجموحي كانا مقصلتي التي ذبحتك بها. فترة علاجك كانت صعبة ومريرة حتى استعدتِ وعيك بعد أيام ولكن كنتِ في حالة ضعف شديدة. حتى أنكِ لم تعودي للاعتراض على شيء ولم تمنعي زيارتي لكِ. كانت زيارتي لكِ بمثابة جسر نعبر به معا فوق كل ما يؤلمنا، وشعرت أنني بدأت استعيدك وأنكِ بدأتِ تستعيدين نفسك. وفوجئت بكِ تطلبين مني أن أساعدك ,أن أكون طبيبك. بالطبع هذا كان غريبا، فلست بطبيب نفسي كما تعلمين، فأنا تخصصي أعصاب. ولكنكِ قلتِ أنكِ لا تريدين غيري، وأنني الوحيد الذي يستطيع مساعدتك. لهذا جئت بكِ إلى هذه الفيلا، بعت شقتنا وسيارتي وقمت بشرائها، لأبعد بكِ عن كل الناس حتى تستعيدين نفسك من جديد. وأتيت بهاتين الممرضتين لرعايتك. وأخبرتهما أنني طبيبك، هذا بناء على طلبك، لأنكِ أردتِ مني أن أتعامل معكِ كطبيب، أن أسمعك فقط وأن أساعدك على تجاوز كل ما أخفيتهِ في أعماقك منذ طفولتك ومراهقتك، بدون أي ضغط مني. أن أكون طبيبك وفقط.

رفضتي في البداية أن آتي بهما، ولكني أقنعتك حتى يقوما برعايتك في الفترات التي أكون فيها في زيارة ابنتنا أو شراء احتياجاتنا. كنت أخشى من بقائك وحدك لأنني لا أضمن أن تصابي بأي انتكاسة مفاجأة. سارت الأمور كما يجب أن تكون، كنت سعيدا بما أراه منكِ بمحاولات التماسك والشفاء، كنتِ تحكين لي كل ما تتذكرينه من طفولتك، حتى ألمك كنتِ تشرحيه لي. في الحقيقة كنتِ طبيبة نفسك، وأنا كنت مستمعا ومساعدا فقط على الاسترسال.

ولكن في اليوم الذي اتصل فيه طبيب يارا ليخبرني أنها استعادت وعيها وهرعت إليكِ مدفوعا بنوبة فرح عارمة لأخبرك، وظننت أن هذا الخبر الرائع سيقفز بعملية شفائك إلى منتهاها. إلا أنني فوجئت بكِ تهربين مني داخل نفسك، وأصبحتِ كأنكِ لا تريننني أو تسمعينني! انفصلتِ تماما عن الواقع وأصبحت حالتك أسوأ من ذي قبل. لم أفهم ماذا يحدث لكِ! ولجأت إلى الله كثيرا، كنت أراكِ في ذهولك عني فأشعر بأنني أفقدك نهائيا، فلا أجد غير سجادة صلاتي لتحتويني وتثبتني وتخبرني أن الله موجود ومعه لا ينتهي الأمل. والحمد لله اليوم، فقط اليوم، أشعر بأنكِ عدتِ من رحلتك، وانتصرتِ في معركتك. أليس كذلك يا عزيزتي؟

وسكت، قال كل هذا وسكت وهو ينظر في عيني بنظرة رجاء دامعة، وانتظر أن أقبل رجاؤه وأن أؤكد له انتصاري .
هذه اللحظة التي سكت فيها كانت لحظة توقف لكل شيء..
لم ينسحب الليل ببطء لشروق الشمس، لم تمطر السماء لتتكون البحار والأنهار، لم تتفتح الزهرة بالتدريج بعد روي جذرها، ولم يؤمن الملحد لأنه تم اقناعه .بل كل شيء حدث فجأة في لحظة التوقف هذه.

اشرقت الشمس، ارتوت الأرض، تفتحت الزهرة، عاد الإيمان.

لحظة توقف هي لحظة انبعاث. توقف الموت هو ولادة للحياة، هكذا كان الأمر.

لن أحاول فهمه كثيرا، خبر عودة ابنتي للوعي اعاد لي خوفي من حقيقة فشلي في رعايتها وأنني سأفشل مرة أخرى، وأنها تكرهني لأنني سببا في عذابها وانسحابها من الحياة ومواجهتها لي بذلك حتى ولو بنظرات عينيها، كل هذا جعلني أسقط في بئر انكاري من جديد وهذه المرة كان سقوطا مدويا، سقوطا لأعماق نفسي، لتواجه كل كوابيسها ومراحل حياتها وكل مشاعرها المضطربة وذكرياتها الذابحة.

وحاول عقلي خداع نفسه مرة أخيرة، بأن اختلق كل تلك الأحداث ليهرب من كل ما يحيط به. ولكن تبقى جزء صغير منه ظل يقاوم ويحاول

مساعدتي، رحمة الله أبت إلا أن تحافظ لي على هذا الجزء الذي اختلق شخصية نائلة لتساعدني على عبور تلك الأزمة والتخلص من كل هذا الصراع الذي يدور بداخلي.

الحمد لله الآن أشعر بأنني شخص جديد، مولود تلك اللحظة، مولود لكي يستعيد النعم التي أنعم الله بها عليه وهولا يشعر بقيمتها، ولا يمتن.

خلقت لنفسي شخصية كريهة وعالم كريه وعشت كالأموات فيهما.

ورحمة الله هي فقط من أنقذتني من نفسي، ساعدتني وساعدت زوجي وانقذت ابنتي، كلنا أخطأنا بنسيان هذه النعم والله برحمته لم ينسانا..

# الفصل..

اعتذر لأنني سأنهي قصتي هنا، لا حاجة لأن أحكي لكم عن محاولاتهم اقناعي بأنني مريضة، وأنني اختلقت أحداث جديدة أحمي بها نفسي من الحزن، وأنني حين علمت ببيع زوجي لشقتي وذهبت إلى بيته وأخبرني بموت ابنتي هرب عقلي إلى ملاذ آخر، فتخلصت من كل الشخصيات التي تملكتني وصنعت قصة مغايرة بطلها زوجي السابق وأن ابنتي على قيد الحياة وتتعافى.!

وأن كل الحوار الذي دار بيني وبينه لم يحدث.

يحاولون أن يسلبونني الحياة، أشخاص لا أعرفهم يظهرون لي بوجوه تدعي الطيبة والاهتمام. لم أعد بحاجة لكل هذا الهراء، معي زوجي وستعود لي ابنتي بعد شفائها، لا أحتاج لحكاياتهم عني وعن خيالاتي، حتى كتاباتي لا أريدها، هذا آخر ما سأكتبه، ثم أنذوي إلى الجدار وانتظر موعد لقائي بابنتي، لن أهتم بغيرها، لن أهتم حتى بنفسي، اكتفيت من كل شيء.

احتاج فقط لزوجي الحنون وابنتي الجميلة والسكون..

لا ضجيج ولا بشر. فقط الجدار اتكئ عليه.

أنظر إليهم كل يوم وهم يدخلون إلى غرفتي ويتكلمون معي ثم يخرجون وعلامات الخيبة على وجوههم.

من هؤلاء الغرباء؟! كيف يسمح لهم زوجي بالدخول والخروج هكذا؟

اسمعهم يتهامسون عني بعد أن يسألونني أسئلة لا أجيب عنها.

فما لهم بما أفكر فيه الآن؟! ومالهم بما أشعر به؟!

أنا لا أشعر سوى بشيء واحد، وهو أنني أنتظر عودة ابنتي إلى حضني. أريد أن أعانقها، مرت سنوات طويلة لم أعانقها فيها، لم أهتم وهي لم تطلب. تركتها تغترب عني واغتربت عنها في عالمي المزيف الذي كنت اختبئ فيه عن نفسي وبشاعتها ،أكتب روايات واختلق شخصيات وأحداث، أعيش في هذا العالم الخيالي الذي اصطنعه، احرك شخصيات رواياتي كما أريد، لم

يفلت الزمام مني وتسلبني تلك الشخصيات وجودي لأن ما يربطني بالواقع ويعيدني إليه حي وينبض.

لن يستطيعوا قتلها أو إقناعي برحيلها.

لدي الآن فرصة ثانية وأخيرة، ولن أفلتها من يدي. سأمكث هنا بجانب هذا الجدار في تلك الغرفة حتى يأتي زوجي بابنتي ويختفي هؤلاء الغرباء وتولد فريدة من جديد.

**تمت بحمد الله**

**واقرأ أيضا للكاتبة:**

**الحزن يرحل سعيدا**

**يا مريم أنا اعتذر**

**نرد بلا أرقام**

**سامينا**

**حين يغفو الحلم**

**للتواصل مع الكاتبة على هذا الإيميل:**

**Smsmsayoussef504@gmail.com**